

القديس كيرلس والكتاب المقدس

د.جورج عوض إبراهيم

دكتوراه في العلوم اللاهوتية - جامعة أثينا

باحث بالمركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

القديس كيرلس الإسكندري

والكتاب المقدس

دكتور جورج عوض إبراهيم

دكتوراه في العلوم اللاهوتية ـ جامعة أثينا
باحث بالمركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

اسم الكتاب : القديس كيرلس الإسكندري والكتاب المقدس

اسم المؤلف :د. جورج عوض إبراهيم

اسم الناشر : د. جورج عوض إبراهيم

georgeibrahim2257@yahoo.com

تصميم الغلاف
فصل الألوان : جذور - ٢٦٣٣٨١٣٧

اسم المطبعة : جي سي سنتر، ١٤ ش محمود حافظ - سفير - مصر الجديدة - ت : ٢٦٣٣٨١٣٧

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٣٨٣٢



قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

المحتويات

الفصل الثاني

صراع القديس كيرلس مع نسطور وإدراك التعليم الخريستولوجي الصحيح يخدم قضية تفسير الكتاب المقدس.

الفصل الثالث

الفصل الرابع

أمثلة تفسيرية للقديس كيرلس الإسكندري

مقدمة عامة عن أهمية كتابات الآباء

لقد اعتبر الآباء الكتاب المقدس كتاباً يفتح نفسه لأولئك الذين كانوا هم أنفسهم ينمون في القداسة بنعمة وقوة الروح القدس. إن التفسير وخواص المفسر من الأمور التي تربطها علاقات حميمة. فمثلاً في عملة الذائع الصيت عن تجسد الكلمة يؤكد القديس أثناسيوس أن البحث والفهم الصحيح للكتب المقدسة (يتطلب) حياة صالحة ونفساً نقية، لا يمكن للمرء أن يفهم تعليم القديسين إن لم يكن للمرء ذهن طاهر وإن لم يحاول محاكاة سيرتهم. إن أي إنسان يريد أن ينظر إلى نور الشمس من الطبيعي أنه يمسح عينيه أولاً لينظفها ليقترب بنقاوة من ذلك الشئ الذي ينظر إليه. والشخص الذي يرغب أن يرى مدينة أو بلداً يذهب إلى موضع ما ليفعل ذلك. هكذا أيضاً فإن أي شخص يريد أن يفهم فكر الكُتّاب القديسين عليه أولاً أن يطهر حياته الخاصة. وأن يقترب من القديسين بمحاكاة أعمالهم تماماً. هكذا يتحد بهم في شركة حياتهم، فيفهم الأمور المستعلنة لهم بواسطة الله. ومن ثم يهرب من الهلاك الذي يهدد الخطاة في يوم الدينونة وينال ما أعده الله للقديسين في ملكوت السموات(١).

ويقدم القديس غريغوريوس النزينزي نفس الأداة في عظاته اللاهوتية إن دراسة أمور الله والحديث عنها جيداً لا يخص أي إنسان، أو كل إنسان، فهذا الأمر ليس لكل المشاهدين أو المستمعين ولا لكل الأزمان، ولا في كل النقاط، بل في مناسبات خاصة، ولدى أشخاص معينين، وفي حدود معينة، ويؤكد القديس غريغوريوس

---

[1] Christopher A. Hall، Reading Scripture with Church Fathers، 1998، P.41.

أن الدراسة اللاهوتية مسموح بها فقط لأولئك الذين تم فحصهم وهم معلمون بارعون في التأملات والذين تطهروا قبلاً نفساً وجسداً أو على أقل تقدير هم في طريقهم للتطهير(٢).

لا القديس أثناسيوس ولا القديس غريغوريوس قد أظهر التفسير الكتابي أو اللاهوتي الكتابي على أنه مجرد نشاط أكاديمي لعلماء دارسين للكتاب المقدس أو لاهوتيين انفصلوا عن حياة الكنيسة أو عن البناء الروحي الشخصي. بل بالحرى هم آباء آمنوا، إن أفضل أنواع التفسير يحدث داخل مجتمع الكنيسة. إن الكُتب المقدسة قد سُلمت للكنيسة وقرئت وكُرز بها وسُمعت وفهمت وتم إدراك ما بها داخل المجتمع الكنسي. ولهذا تم تفسيرها في أمان فقط بواسطة أولئك الذين صاغت الصلاة خصالهم ومميزاتهم وكذلك العبادة والتأملات وفحص الذات والاعتراف ووسائل أخرى تصل نعمة المسيح بواسطتها إلى جسده، بمعنى أنه عند الآباء، أي انفصال بين السمة الشخصية والمجتمع المسيحي ودراسة الكتاب المقدس سوف يكون خطيراً ومميتاً لأية محاولة لفهم الكتاب المقدس. وهذا المدخل الشمولي والمجتمعي هو منهج مؤكد يوفر فحصاً عميقاً في عالمنا الشديد الفردية والتخصص والانقسام والتشرد.

إن إصرار الآباء على النمو الروحي وتكاملية السمات الشخصية كلما حاولنا الاقتراب من دراسة الكتاب المقدس هي نصيحة لابد أن نأخذ بها. وللأسف فإن كلماتنا وأقوالنا وحياتنا لا تتناسب دائماً مع هذه الشروط. فنحن نفتقد الوحدة فلسنا وحدة واحدة، إن دعوة الآباء إلى الوحدة داخل المجتمع الكنسي حتى يمكننا فهم الرواية والتواصل

[2]Gregory of Nazianzus، " The First theological oration"، in Christotogy of the Later Fathers، (Philadelphia: Westminster Press، 1954)، P. 129. Christopher A. Hall، P.75.

معها بشكل أكثر أمانة هو شرط لا مفر منه لفهم كيف ولماذا لجأ الآباء إلى عملهم في التفسير. إن الحوار المتبادل بين النمو الروحي وصياغة الشخصية وفهم الكتاب هي بصيرة آبائية أساسية.

إن عمل الأب المعلم - كما يشرح لنا أستاذ الآبائيات ستليانوس بابا دوبلوس(٣) - هو بمثابة عمل غامض، ومجال مقدس ومليء بعلامات الاستفهام، وهو عمل حقيقي وله بُعد أساسي ووجودي. إنه غامض لأنه يمثل حدث روحي لا يُقترب منه، ولا يمكن التعبير عنه لمَن لا يحيا النعمة الإلهية التي أبدعت هذا العمل. أيضًا بالنسبة للمؤمنْ أو اللاهوتي لم يتوقف الأب أن يكون غامض ومطلوب لمَنْ يريد التسلل داخل فكر الأب جهاد ونعمة إلهية غنية. الكلام هنا عن حقيقة واقعية ملموسة (النصوص الآبائية) هي موجودة ويراها العالم، إنما هي شيء أخر يختلف عنه، إن هذا المحتوي الحقيقي للنصوص مقدس ومميز عن أي محتوي طبيعي وعادي لأنه يمثل التغيير الديناميكي لإنسان مأسوي إلي كائن يشترك في الوجود مع الحق، ويحيا فيه ولأجله. علاقة الأب الديناميكية والحقيقية مع الحق الإلهي، بمعني مع الله الثالوث يجعل هذا الشخص مُميَّز وجذاب. العنصر الحقيقي والمقدس والمتباين أي الغريب في تميزه يصير قطب جذب ومدهش بالنسبة للمؤمنين الذين تذوقوا الحق الإلهي. لكن، في نفس الوقت، العناصر التي تحول الأب إلي قطب جاذب، تجعله-إيجابيًا – محل تصادم. الكلام هنا عن الوجه الآخر للإعجاب الذي يحتوى علي خوف من جانب المتلقي أو قارئ النص. بقدر ما يتولد داخله الانجذاب نحوه، يتولد بالقدر نفسه أيضًا الخوف أمام الشيء الجديد والذي هو غامض وصعب الاقتراب إليه. إن خبرة

[3] Στυλιανοῦ. Γ. Παπα δοπουλου πατρολογὶα Α΄. Ἀθῆνα 1991. σελ. 2-79:

ما هو إلهي أو الحق الإلهي، والاختطاف إلي السموات مثل بولس الرسول، هي بمثابة شيء ليس من المفترض أن يتحقق دائمًا. ليست هي من ضمن الحالات الدائمة. فالأب ليس في كل لحظات حياته هو عظيم. العظمة هذه تُمنح له في لحظات كثيرة أو قليلة في حياته. في هذا الإطار نشأت مشكلة كيف نفهم نصوص الآباء؟ البعض يحصر موضوع فهم الآباء في المناهج التاريخية والأدبية والتي هي بمثابة السطح الظاهري، والإطار الذي يحتوى علي جوهر العمل. إذن هذه العناصر غير كافية. في موضوعنا هذا الابتعاد عن عالم الأب يمثل السبب الأول للغموض الذي ينتاب المفسر أمام النص. إذن الابتعاد عن فكر الأب وكذلك عن طريقة التعبير أي المنهج والشكل والأدوات التي أستخدمها في كتابة النص يجعلنا غير فاهمين للنص ولا لتعاليم الأب اللاهوتية. والصعوبة الكبيرة تكاد تنحصر في الاقتراب من فكر الأب نفسه، وكذلك مِن طريقة تعبيره لأنها لا ترتبط فقط بفكر الأب بل تعتمد عليه هو نفسه في استخدامها. التعبير عن التعاليم اللاهوتية ليس هو أكلشيه ثابت محفوظ بدون استلزامات وشروط ونتائج. لان الأب أخذ الأدوات المستخدمة في محيطه الفكري المعاصر، وعبِّرَ عن تعاليمه داخل أبنية فكرية حية في عصره، لكن بطريقة خاصة طوَّعها لخدمة هدفه ولإظهار الحق الإلهي. وهكذا نستطيع أن نقول إن الفهم الصحيح للجوانب الخارجية للتعاليم الآبائية، ونقصد العنصر التاريخي واللغوي والأدبي يتحقق عندما نفهم روح أو فكر الأب نفسه.فبالعناصر الهامة والضرورية: التاريخية والأدبية والاجتماعية المتعلقة بالنص الأبائي إذا جمعها الدارس يستطيع بها أن يعرف الأب ككاتب وأديب ومفكر لكن لن يتعرف عليه كأداة لله والمُعبر عن الحق الإلهي الذي يؤَّمن الخلاص.

إذن فِهم فكر الأب ليست مشكلة معرفة بسيطة بخصائص النص الخارجية – كما قلنا – بل هي مشكلة اشتراك في فكره أو روحه، إنها مشكلة إدراك واستيعاب الأب نفسه والدخول فيه. وانعزال الدارس عن المشاركة والدخول في فكر الأب يعيقه عن فهم النص. في هذه الحالة حيث الدارس يظل منعزلاً بعيدًا عن الله والحق الإلهي الذي ينادي به الأب، لن يستطيع أن يفهم إطلاقًا روح الأب. لأن الأب تخطي مرحلة العزلة وصار في الحق. وكونه في الحقيقة، فإن خبرة الأب صارت قريبة فقط من خلال الطريق الذي أنتهجه الأب نفسه. وهذا الطريق هو تخطي العُزلة والدخول في الحق. تخطي العزلة والإستقرار يُتَّمم فقط بالتحرر وبالفداء، بتغير الإنسان وتحوله إلي خليقة جديدة. وروح أو فكر الأب كتعبير للحق هو شيء له علاقة مع فكر الإنسان، إذن يتطلب تغيير جذري لفكر الإنسان هذا ليدخل إلي روح أو فكر الأب، ولا يكفي أي تحسين لفكر الإنسان أو أي عمل ذهني. إذن فِهم نصوص الآباء هو المشاركة في الخبرة الآبائية للحق بالنعمة الإلهية، والدخول في مناخ الأب الروحي. والدخول يتحقق عندما يتحول الدارس ويتغير تغييرًا جذريًا ليصير خليقة جديدة ويصبح مشاركًا في الخبرات التي يعبر عنها الآباء. والبداية لفهم أي نص آبائي هو محاولة فِهم شخص الأب وفي نفس الوقت عمله. فدراسة الشخصية تُسهل شرح عمله. فأولاً الاقتراب إلي شخصيتة ثم بعد ذلك الاقتراب إلي عمله.

إن التراث الآبائى له قيمة دائمة لأنه يمثل الدخول المباشر إلى الغنى الروحى للإعلان الكتابى، هذا التراث يُشعِل روحانية الكنيسة. للأسف تيار الحداثة في عصر النهضة والتنوير ـ كما يسمونه رواده ـ قد أزاح التقليد جانبًا وبشكل نهائي، وبدأوا تفسير الكتاب بمعزل

عن التقليد التفسيري الآبائي. لكن نشهد في السنوات الأخيرة عودة إلى الآباء وكتاباتهم بعدما تيقن البعض من المفسرين المعاصرين أهمية التفسير الآبائي. لذا يقول روجر Roger Lundin: ”لابد أن تبقى الحقيقة في إطار التقليد أو التقاليد التي أُهملت أو نُسيت والتي نحن في حاجة إلى إستعادتها“[٤].

ويرى روبرت ويلكن Robert Wilkon أن الشك المبالغ فيه حول التقليد أدى إلى عجز التفسير في عصر النهضة على قبول كل ما جاء قبله بشيء من العرفان، ويؤكد روبرت على أن العقل البشري لا يعمل من فراغ وأن الإنسان يحتاج دائمًا لمعُلِم يرشده ويعلمه فَمِن غير المعقول أن يتعلم أحد العزف على آلة موسيقية أو ينحت تمثالاً بدون مُعَلِم، إذ يقول: ”وفي حقول كثيرة من العمل الخلاق فإن الإنغماس في التقليد هو الإفتراض المحتمل للتفوق والتمييز والأصالة. فَكِرْ، مثلاً في الموسيقي. إنني أستمع في صباح الآحاد إلى عرض لموسيقي الجاز في الراديو الوطني العام الذي يقدم مقابلات مع المشاهير وغير المشاهير من عازفي البيانو في موسيقي الجاز وعازفي آلة السكسفون والطبلة والترومبيت...الخ. وبإنتظام يثيرني ويدهشني كيف يتحدثون بمنتهي الوقار والتوقير والإحترام عن معلميهم ومدربيهم وكيف يخاطبون شخصًا كان قد عَلَمَهم أول دروس العزف على البيانو وحاكي فيها هذا الشخص أو تعلم كيف ينفخ في الترومبيت بتقليد لويس أرمسترونج أو أي شخص آخر. أيضًا ينبهر المرء للطريقة التي يتحدث بها مُغني مشهور مثل جين ريدباث وهو ذائع الصيت في الأغاني الشعبية نراه يتحدث عن

[4] Roger Lundin، the Culture of Interpretation (Grand Rapids، Mich: Ecrdmans، 1993)، P.89. Christopher A. Hall، Reading Scripture with Church Fathers، 1998، P.27.

التقليد كحالة ضرورية لتأليف وغناء الموسيقي الشعبية. وكيف نتلقي دائمًا النصائح ألا نهمل وننسي التقاليد القديمة. لماذا؟ بالتأكيد ليس لأسباب تاريخية أو آثارية، بل لأن الموسيقيين مثلهم مثل الرسامين والكُتّاب والنحاتين، يعرفون في أناملهم أو أحبالهم الصوتية أو آذانهم أن المحاكاة هي السبيل إلى التميز والتفوق والأصالة"[٥]. نفس الشيء نقوله بخصوص العمل التفسيري. مثلما يقول ويلكين: «إن كانت الطريقة التي نتعلم بواسطتها كيف نفكر هي بقراءة أعمال مفكرين بارعين وأن ندع أفكارهم تشكل أفكارنا، فمن الأفضل أن يخضع المرء نفسه ليتعلم من أولئك الكُتَّاب الذين أظهروا أعمالاً جديرة بالثقة مع مرور الوقت. أولئك الذين تم إختبارهم على مر هذه السنين كلها فوجدناهم يمكن التعويل عليهم كمفسرين لعمل الله في الخلاص بالمسيح»[٦].

هكذا إنغماس ويلكن في كتابات الآباء قادة إلى إيجاد بديل عميق للمعرفة الفردية المُغالي فيها، لذا يؤكد على أن المسيحيين سوف يجدون هويتهم عندما يستدعون عالم التقليد الآبائي الذي لا يخضع للخيال والتصور ويطلب الحق من خلال قراءة جامعة وشاملة للواقع الذي ينعكس بين الحين والآخر في كتابات آباء الكنيسة.

يتكون هذا الكتاب، الذي هو مجموعة المحاضرات التابعة لكورس: الآباء والكتاب المقدس الذي بدأ منذ عام ٢٠٠١م في المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، من أربعة فصول. يحتوي الفصل الأول على حياة وأعمال القديس كيرلس الإسكندري، والفصل الثاني

[5] Robertl. Wilken، Remembering the Christion past (Grand Rapids، Mich: Ecrdmans، 1995)، P.170-171. Christopher A. Hall، Reading Scripture with Church Fathers، 1998، P.27.

[6] Ibid، P.174.

على القديس كيرلس والصراع النسطوري أما الفصل الثالث فإنه يحتوي على القديس كيرلس كمفسر للكتاب المقدس حيث نتعرف على الملامح الأساسية للتفسير عند القديس كيرلس، كذلك الفصل الرابع يحتوي على تطبيق المبادىء الأساسية التي تبناها القديس كيرلس في المقالة الأولى لكتابه السجود والعبادة بالروح والحق، وأيضا في عظتين له أثناء تفسيره لإنجيل لوقا. نسأل الله أن يجعل هذا الكتاب سبب بركة وإستنارة لمَنْ يدرسه بصلوات قداسة البابا المعظم الأنبا تاوضروس الثاني بابا وبطريرك الكرازة المرقسية وبصلوات العذراء القديسة مريم والدة الإله وسائر آباء الكنيسة العظام ونخص بالذكر القديس كيرلس الإسكندري عمود الدين، لإلهنا كل المجد من الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

الفصل الأول

القديس كيرلس الإسكندري
حياته وأعماله

حياته:

السبب الأول لأهمية الآباء لنا، بحسب رأي أستاذ الآبائيات ستليانوس بابا دوبلوس(٧)، ليس لأجل أن نعرف مَنْ كانوا؟ وما هي تعاليمهم؟ لكن أن نذوق مناخهم الروحي. أن نتحسس آثار الروح القدس في شخصياتهم المقدسة. أن نضع أصبعنا علي صراعهم من أجل الحق. أن نحيا شيئًا من خبراتهم الإلهية، من رؤياهم من أفراحهم من أحزانهم من اختطافاتهم من العالم إلي السماء. نتتبع إيمانهم وثقتهم العميقة في الروح القدس. لذا علينا أن نتعرف على قصة حياة القديس كيرلس وكذلك على صراعه من أجل سلامة الإيمان من الإنحراف وما هو الجهاد الذي خاضه حتى نتفهم منهجه في التفكير والتفسير. خلاصة الأمر يجب أن نخوض معه مسيرة حياته هذه لنعيشها ونتلمس معه آثار كتابات السابقين التي أثرت عليه وشكلت منهجه وأسلوبه في مواجهة المناخ الفكري والديني المحيط به حتى يتسنى لنا أن نفهم جيداً كيف فسر الكتاب المقدس، وكيف صاغ إيمانه العقيدي أثناء شرحه للكتاب.

[7] Στυλιανοῦ. Γ. Παπαδοπουλου πατρολογὶα Α`. Αθῆνα 1991. σελ. 2-79: أنظر المزيد

نشأته

وُلِدَ القديس كيرلس على الأرجح حوالي سنة ٣٧٥م بالإسكندرية. وهو ابن أخت البابا ثاؤفيلس بطريرك الإسكندرية الـ ٢٣. تربى القديس كيرلس في الإسكندرية برعاية البطريرك ثاؤفيلس، وواظب على حضور اجتماعات الكنيسة اليومية حيث كان الكهنة والشمامسة يعلِّمون الشعب أصول الإيمان. قضى ق. كيرلس حوالي خمس سنوات في برية شيهيت (٣٩٤ – ٣٩٩م). وكان عمره حين ذهب للبرية حوالي عشرين سنة، وهناك قرأ العهدين القديم والجديد على يدي خليفة القديس مقاريوس الكبير الأب سرابيون. كان ق. كيرلس يحفظ النص بمجرد قراءته مرة واحدة. وكان يقضي الليل ساهراً يحفظ الكتب المقدسة لكي يسمِّع في الصباح ما حفظه أمام أبيه الروحي. وحضر كيرلس دروس المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية على يدي ديديموس الضرير. ثم استدعاه خاله البطريرك ثاؤفيلس ليكون شماساً معه في الإسكندرية ورسمه قارئاً وطلب منه أن يشرح الكتب المقدسة للشعب. وفي سنة ٤٠٤م رُسم كيرلس قساً بكنيسة الإسكندرية وانطلق يعظ ويعلم الشعب ويفسر الكتب المقدسة، ويوضح من خلالها تعليم الإيمان الصحيح، وبدأت تظهر في تلك الفترة موهبته التعليمية وشخصيته الروحانية.

دَرَسَ القديس كيرلس مؤلفات آباء الإسكندرية مثل العلامة أوريجينوس، و ق. أثناسيوس، والعلامة ديديموس الضرير. كما أطلع أيضاً على مؤلفات القديسين باسيليوس القيصري وغريغوريوس النيزينزي.كما دَرَسَ القديس كيرلس اللغات القديمة الشائعة في أيامه وهي العبرية والسريانية، ولكنه كتب باليونانية وربما القليل بالقبطية.

رسامته بطريركاً

عندما خلا الكرسي البطريركي بنياحة الأنبا ثاؤفيلس في ١٥ أكتوبر سنة ٤١٢م اتجهت أنظار الجميع إلي القديس كيرلس ابن شقيقته. وعبثاً حاول الوالي ابوداكس أن يثني الشعب عن انتخابه، وعبثاً هددهم فلم يخضعوا ولم يرهبوا إذ كانوا متيقنين أن كيرلس هو الشخص الوحيد الذي يصلح لرعاية كنيسة الإسكندرية بعد البطريرك ثاؤفيلس. فتم انتخابه وقام الأساقفة برسامته أسقفاً للإسكندرية وبطريركاً لكرازة مار مرقس رقم ٢٤ في نفس السنة وله من العمر حوالي ٣٨ سنة.

وواصل البطريرك كيرلس جهاده في تعليم المؤمنين بالوعظ وتفسير الكتب المقدسة، وتعليمهم أصول الإيمان المستقيم، وكان ينبه الشعب لكي يحذروا من تأثير الكتابات الوثنية التي لم تكن بقاياها قد تلاشت تماماً بعد. وربما بسبب كفاحه الصلب ضد بقايا الوثنية، نسب إليه بعض المؤرخين ظلماً بعض المسئولية عن مقتل الفيلسوفة الوثنية الشهيرة هيباشيا في الإسكندرية في عصره سنة ٤١٥م ولكن لا يوجد أي دليل على مسئولية القديس كيرلس عن هذه الجريمة. وابتداء من ٤٢٨م بدأ القديس كيرلس يظهر كعلامة بارزة وعامل حاسم في تاريخ العقيدة الأرثوذكسية وتاريخ العلاقات الكنسية، وذلك بظهور هرطقة نسطور بطريرك القسطنطينية، إذ قام القديس كيرلس بدور المدافع الأول عن الأرثوذكسية ضد البدعة النسطورية.

نسطور وتعليمه الخريستولوجي

كان نسطور يؤكد في عظاته بكنيسة القسطنطينية أنه يوجد شخصان في المسيح، شخصٌ إلهي هو اللوغوس الكلمة، الذي يسكن في شخص إنسان هو الإنسان يسوع، وأن العذراء القديسة مريم لا يمكن أن تدعى «والدة الإله ثيئوطوكوس:«θεοτόκος» وقد رد القديس كيرلس على تعاليم نسطور هذه ابتداء من ربيع عام ٤٢٩م في رسالته الفصحية لتلك السنة، وحدثت مراسلات بين البطريرك كيرلس والبطريرك نسطور منذ ذلك الحين، انتهت بانعقاد مجمع أفسس المسكوني الثالث سنة ٤٣١م الذي دعا إليه الإمبراطور ثؤدوسيوس الصغير. وحكم المجمع بعزل نسطور وحرمه لانحراف إيمانه وإصراره على أفكاره غير المستقيمة. وثبَّت المجمع المسكوني حروم القديس كيرلس الأثنى عشر. وحكم على تعاليم نسطور بالضلال. وأيَّد استعمال لقب «ثيئوطوكوس (أي) والدة الإله[٨]» للعذراء مريم. وهذا اللقب كان استخداماً قديماً سابقاً على ظهور البدعة النسطورية بكثير. وقد تعرض القديس كيرلس للسجن لعدة شهور أثناء فترة وجوده في أفسس بسبب دفاعه عن الإيمان. وعند عودته إلى الإسكندرية في ٣٠ أكتوبر سنة ٤٣١م، استُقبل في الإسكندرية استقبال الأبطال، إذ نظر إليه المؤمنون على أنه أثناسيوس جديد، وهكذا لقبه الأقباط بلقب «عمود الدين». وبعد كفاح طويل وصمود شامخ في الدفاع عن الإيمان، رقد القديس كيرلس في الرب في يوم ٣ أبيب سنة ١٦٠ ش الموافق ١٠ يوليو ٤٤٤م.

---

[٨] قد نشر المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مقالة للقديس كيرلس الإسكندري بعنوان: «ضد أولئك الذين لا يعترفون بأن العذراء القديسة هي والدة الإله» ترجمة عن اليونانية د. جورج عوض إبراهيم ومراجعة د. نصحي عبد الشهيد، يونيو ٢٠١١ م.

كتابات القديس كيرلس:

القديس كيرلس هو واحد من أعظم رموز الفكر المسيحي في القرون الأولى. فكتاباته تملأ عشرة مجلدات ضخمة من مجموعة Migne اليونانية: مجلدات من ٦٨ إلى ٧٧ PG. وتتميز كتابات القديس كيرلس بالعمق وثراء الأفكار، والدقة والوضوح في النقاش مما يثبت موهبته التأملية والجدلية، ومما يجعل من كتاباته مصادر من الدرجة الأولى في الأهمية لتاريخ العقيدة والتعليم الإيماني. ودرج علماء الآباء على تقسيم كتابات القديس كيرلس إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: تنتهي بظهور البدعة النسطورية سنة ٤٢٨م، وهذه المرحلة كانت مكرسة لتفسير أسفار الكتاب المقدس بعهديه، والدفاع عن الإيمان ضد البدعة الأريوسية.

المرحلة الثانية: تبدأ من سنة ٤٢٨م بظهور البدعة النسطورية وتنتهي بنياحة القديس كيرلس، ومعظم كتابات هذه المرحلة مكرسة للدفاع عن التعليم الصحيح في التجسد، ضد البدعة النسطورية.

أ- الكتابات التفسيرية:

تشكل الجزء الأكبر من إنتاجه اللاهوتي، إذ تشغل ٧ مجلدات من مجموعة ميني، وهي المجلدات من ٦٨ - ٧٤ من بترولوجيا جريكا. تشغل شروحاته على أسفار العهد القديم خمسة مجلدات منها (من ٦٨ - ٧٢) بينما تشغل شروحه للعهد الجديد مجلدي ٧٣، ٧٤ من مجموعة ميني وشذرات في مجلد ٧٢، وجزء صغير من مجلد ٧٧.

١ـــ تفاسيره للعهد القديم

أ- السجود والعبادة بالروح والحق

تقع في ١٧ مقالة وتشكل مجلد ٦٨ كله من مجموعة Migne اليونانية. وهو على شكل حوار بين كيرلس وبلاديوس عن تفسير مقاطع منتخبة من الأسفار الخمسة (من تكوين - تثنية)، يبيِّن فيه أن الناموس أُبطل حرفياً، ولكنه باقٍ روحياً. وأن فرائض العهد القديم هي رموز مسبقة للعبادة بالروح. (ترجمه المركز في ٨ أجزاء ثم بعد ذلك جُمعت الأجزاء في مجلد واحد ونُشر في ٢٠١٣م).

ب- جلافيرا (Glaphyra): (تفسيرات لامعة)

١٣ مقالة من "تفسيرات لامعة" وهذا هو معنى العنوان وتعتبر مكملة "للعبادة بالروح والحق". وهو أيضاً تفسير مقاطع مختارة من الأسفار الخمسة الأولى ولكن ليس على شكل حوار كالكتاب الأول. ٧ مقالات مخصصة لسفر التكوين، و٣ للخروج، ومقالة واحدة لكل من اللاويين والعدد والتثنية (ويشمل حوالي نصف مجلد ٦٩ من Migne). ويجري نشر حلقات منه في الكتاب الشهري للشباب والخدام الذي يصدره بيت التكريس لخدمة الكرازة، وقد تم نشر هذا العمل في الكتاب الشهري وسوف يصدر في مجلد واحد).

جـــ- تفسير أشعياء

مكون من ٥ كتب يفسِّر فيها جميع إصحاحات سفر أشعياء. ويشمل المجلد رقم ٧٠ من مجموعة Migne. وجاري ترجمة

هذا السفر في المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ويُنشر على أجزاء في الكتاب الشهري للشباب والخدام الذي يصدره بيت التكريس لخدمة الكرازة.

د- تفسير الأنبياء الإثنى عشر الصغار

يحوى ١٢ جزءاً لكل سفر من الأنبياء الصغار. (ويشغل مجلد ٧١ كله، وحوالي ثلث مجلد ٧٢ من Migne). وقد نشر المركز تفسير القديس كيرلس لسفر يونان في يناير ٢٠١١ وسفر حجي في سنة ٢٠١٢ وجاري ترجمة بقية أسفار الأنبياء الصغار.

وإضافة إلى هذه التفاسير الكبيرة للعهد القديم وصلتنا شذرات من تفاسير أخرى في سلاسل التفسير الـ Catenae، بعضٌ منها كبير جداً؛ وهى شذرات من أسفار الملوك، والمزامير، بعض الأناشيد، والأمثال، نشيد الأنشاد، أرميا، حزقيال، دانيال. ويوجد مخطوط بالأرمينية بمكتبة (Bodleian أكسفورد) يحوى شذرات من تفسير حزقيال منسوب لكيرلس، وبعضها مماثل لما نشره Migne باليونانية لتفسير حزقيال.

٢ــ تفاسيره للعهد الجديد

من أهم تفاسيره للعهد الجديد هو شرحه لإنجيل القديس يوحنا الذي يشغل مجلد ٧٣ كله ونصف مجلد ٧٤. أما تفسيره لإنجيل لوقا فلم يبق من الأصل اليوناني سوى ٣ عظات كاملة وبعض شذرات متفرقة. ولكن وصلتنا نسخة مترجمة للسريانية ترجع إلى القرن السادس الميلادي تحوي ١٥٦ عظة على إنجيل لوقا وهي التي ترجمها Payne Smith "باين سميث" إلى

الإنجليزية ونشرها بأكسفورد سنة ١٨٥٩م (والتي نشر منها مركز دراسات الآباء، ٣ أجزاء من تفسير إنجيل لوقا للقديس كيرلس بالعربية في ١٩٩٠، وسنة ١٩٩٢، وسنة ١٩٩٦، والجزء الرابع صدر سنة ١٩٩٨، والجزء الخامس سنة ٢٠٠١. وقد صدر تفسير لوقا كاملاً في مجلد واحد في شهر سبتمبر سنة ٢٠٠٧. ويحوي مجلد ٧٤ عدة أجزاء من تفاسير مفقودة للقديس كيرلس على رسالة رومية وعلى رسالتي كورنثوس، وعلى الرسالة إلى العبرانيين وعلى إنجيل متى.

ب ــ كتاباته العقيدية ــ الدفاعية ضد الأريوسيين:

كتابان: ١- الكنـــز في الثالوث، وقد تم ترجمته إلى العربية ونشره المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية عام ٢٠١١م.

٢ـ حوارات حول الثالوث، ويتكون من ٧ حوارات، وقد تم ترجمته ونشره المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية على أجزاء وسوف تُجمع هذه الأجزاء لكي تُنشر في مجلد واحد.

وهذان الكتابان يشغلان معظم مجلد ٧٥.

ج - كتاباته العقيدية ــ الدفاعية ضد النسطورية:

وهي ثمانية كتب:

١ـ ضد تجاديف نسطوريوس.

٢ـ قاعدة الإيمان De Recta Fide

٣ـ الحروم الإثنى عشر ضد نسطور ترجمها نيافة الأنبا غريغوريوس في "مذكرة النسطورية"، ثم ترجمها ونشرها مركز دراسات الآباء سنة ١٩٨٨م ضمن الرسالة ١٧ وهى ترجمة جديدة للدكتور موريس تاوضروس والدكتور نصحي

عبد الشهيد.

٤- الاحتجاج لدى الإمبراطور ثاؤدوسيوس الصغير.

٥- شرح تجسد الابن الوحيد (نُشِرَ باللغة العربية سنة ١٩٧٥م بالقاهرة).

٦- ضد من ينكرون أن العذراء مريم هي والدة الإله وقد تم ترجمته إلى العربية ونشره المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية تحت عنوان: "والدة الإله" في يونيو ٢٠١١م.

٧- ضد ديودوروس الطرسوسي وثيئودوروس أسقف المصيصة معلمي نسطوريوس.

٨- المسيح واحد: وهو حوار حول وحدة شخص المسيح. (نشره مركز دراسات الآباء بالعربية سنة ١٩٨٧م بالقاهرة).

وتشغل هذه الكتب جزءً من مجلد ٧٥ وجزءً من مجلد ٧٦.

د- الرد على كتب يوليانوس الجاحد ضد المسيحيين:

ويشغل جزءً من مجلد ٧٦ ويرجح أنه كُتب بين سنتي ٤٣٣و٤٤١م.

هـ- الرسائل الفصحية:

وعددها ٢٩ رسالة للسنوات من ٤١٤ إلى ٤٤٢ وتشغل جزءً كبيراً من مجلد ٧٧. نُشرت الرسالة الفصحية الأولى للقديس كيرلس سنة ٢٠٠٤ والرسالة الفصحية الثانية سنة ٢٠٠٨.

و- العظات:

لم يتبق من كل العظات التي ألقاها القديس كيرلس طوال سنين

بطريركيته الطويلة (٤١٢ إلى ٤٤٤) سوى ٢٢ عظة، وقد وضعها الناشرون تحت عنوان "عظات متنوعة" للتمييز بينها وبين العظات الفصحية أو الرسائل الفصحية.

العظات الثمانية الأولى من هذه المجموعة ألقاها القديس كيرلس في صيف سنة ٤٣١م أثناء انعقاد مجمع أفسس المسكوني، العظة رقم ٤ هي العظة الشهيرة جداً عن والدة الإله التي ألقاها في كنيسة القديسة مريم بأفسس في ٢٣ يونيه ٤٣١م. وهذه العظات تشغل جزءً صغيراً من مجلد ٧٧.

ز- الرسائل:

عدد كبير من مراسلات القديس كيرلس لا تزال باقية، فقد نُشرت في مجلد رقم ٧٧ من مجموعة ميني Migne 105 رسالة؛ ٨٨ رسالة منها أرسلها القديس كيرلس و١٧ مرسلة إليه من آخرين. كما نشر شوارتز E. Shwartz خمس رسائل أخرى فتكون جملة الرسائل ١١٠ رسالة.

هذه الرسائل هامة جداً بالنسبة لتاريخ "الكنيسة والدولة"، وبالنسبة للتعليم الكنسي، والقانون الكنسي، وللعلاقات بين الشرق والغرب والتنافس القائم بين المدارس اللاهوتية والكراسي الأسقفية:

١- رسالة رقم ٥٥ تحوي شرحاً لقانون الإيمان. نشرها مركز دراسات الآباء سنة ١٩٨٤م.

٢- بينما هناك ٣ رسائل لها الأهمية الأولي في تاريخ العقيدة المسيحية وهي الرسالتان الثانية والثالثة إلى نسطور (رقم٤

ورقم١٧) والرسالة إلى يوحنا الأنطاكي (رقم٣٩). هذه الرسائل الثلاثة تسمي الرسائل المسكونية. رسالة رقم (٤) سُميت بالرسالة العقائدية. وقد اعتمدها مجمع أفسس بالإجماع في جلسته الأولى في ٢٢ يونيو ٤٣١م وشهد لها الجميع بأنها تتفق تماماً مع قانون إيمان مجمع نيقية. ورسالة رقم (١٧) تحوي الحروم الإثنى عشر وقد ضُمت إلى أعمال مجمع أفسس المسكوني.

أما الرسالة رقم ٣٩ والتي سميت "قانون إيمان أفسس"، فتحوي بيان الإيمان بخصوص طبيعة المسيح الذي على أساسه تم الاتحاد بين يوحنا الأنطاكي وكنيسة أنطاكية من جهة وبين القديس كيرلس وكنيسة الإسكندرية من جهة أخرى سنة ٤٣٣م بعد انشقاق استمر سنتين بعد مجمع أفسس المسكوني، ولذلك سميت "رسالة الاتحاد". وهذه الرسائل الثلاثة تُرجمت إلى العربية ونشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة سنة ١٩٨٨م في كتاب واحد. وطبعت طبعة ثانية سنة ٢٠٠١م.

٣- وفي ١٩٨٩م نشر مركز دراسات الآباء الجزء الثاني من رسائل القديس كيرلس السكندري من (١ - ٣٢). وفي سنة ١٩٩٥م نُشر الجزء الثالث (٣٢ - ٥٠)، ونُشر الجزء الرابع (٥١ - إلخ) سنة ١٩٩٧م.

أسئلة الفصل الأول

١- أكتب بإختصار نشأة القديس كيرلس الإسكندري ورسامته بطريركًا؟

٢- متى بدأ الصراع النسطوري، وهل له تأثير في كتابات القديس كيرلس، إشرح بالتفصيل؟

٣- أذكر كتابات القديس كيرلس؟

٤- أذكر على قدر إستطاعتك أسماء كتابات القديس كيرلس المترجمة للغة العربية؟

الفصل الثاني

صراع القديس كيرلس مع نسطور وإدراك التعليم الخريستولوجي الصحيح يخدم قضية تفسير الكتاب المقدس.

القديس كيرلس والصراع النسطوري(٩)

مكانة مدينة الإسكندرية ورئيس أساقفتها

منذ بدايات الإمبراطورية الرومانية ولزمن طويل، ظلّت مدينة الإسكندرية الميناء الرئيسي لتزويد روما الملكية بما تحتاجه من مؤن. لذلك زادت أهمية الإسكندرية جنباً إلى جنب مع العاصمة. ولم ينسى أحد تلك الأمجاد المبكرة كمركز عالمي للتعليم في زمن البطالسة خاصة في دورها الجديد كعاصمة إمبراطورية إقليمية ملكية. وكانت مدينة يونانية أكثر منها رومانية. وفي القرن الرابع الميلادي أثناء بداية الفترة البيزنطية كانت المدينة تتمتع بقوة سياسية وثقافية عظمى. وكان الحكام الإقليميون في مصر رجالاً ذوي قوة مؤثرة لم يتغاض عنها حتى الأباطرة أنفسهم. ومع قدوم القرن الخامس الميلادي، تعاظم الدور أكثر فأكثر ليشمل القادة الكنسيين لمدينة الإسكندرية، خاصة حين زاد عدد السكان المسيحيين بالمدينة بالإضافة إلى مجموعتين آخريتين كبيرتين هما: المجتمع اليهودي الكبير، وطبقة المتعلمين من الفلاسفة التي كانت السبب في جعل الإسكندرية بؤرة لمعارضة وثنية ضد أسلوب الحياة المسيحية.

---

9 ST Cyril of Alexandria، On The Unity Of Christ، Translated and with an Introduction by John Anthony Mcguckin، st vladimir seminary press Crestwood، NY 10707 1995، pp. 9-47. انظر المقدمة وهي مرجع أساسي لنا.

وفي زمن قسطنطين الكبير، تمتع الأسقف كقائد مسيحي عظيم يقف في مواجهة بيروقراطية الدولة. وسرعان ما عرف الناس بطريركية الإسكندرية من خلال العالم المسيحي كقوة قيادة في صياغة التعليم المسيحي، والتي كان لها أكبر الأثر الإرشادي في العديد من القضايا ذات الأهمية القانونية.

ومنذ القرن الثالث الميلادي، كان اللاهوتيين المسيحيون السكندريون من المشاهير عالمياً، وقام كل واحد منهم بطريقته الخاصة بتطوير مدرسة مميزة روحانية للفكر. فهناك المفكرون أمثال بنتينوس وكليمنضس وأوريجينوس. وقد احتل القديس كيرلس مركزاً كبيراً وسط مشاهير هؤلاء الآباء وكان مدركاً بشكل كبير لأعمال الآباء الذين سبقوه.

القديس ثأوفيلوس وتربيته للقديس كيرلس

وقبل قيام القسطنطينية لتحتل شهرتها الكنسية في القرن الرابع، فإن إيبارشيات الإسكندرية وروما كانتا بلا منازع قادة الرأي المسيحي والراعي الرسمي للحياة المسيحية الشرقية. وكان من بين أكبر القيادات الكنسية المؤثرة والعظيمة للإسكندرية هو القديس ثأوفيلوس الذي كان رئيس أساقفة الإسكندرية في الفترة من ٣٨٥م حتى ٤١٢م. وقد استخدم السلطة قاعدة أساسية في كرسيه ليستفعل أثراً جديداً من التشريع القانوني الملكي ضد المعابد الوثنية. لذا شكل تبوأه للكرسي ظهور الإسكندرية كمدينة مسيحية بالتمام. وكانت لثأوفيلوس طموحات عظيمة لمدينته وكرسيه.

وقد رفع هذا البطريرك القوي ابن شقيقته على المدينة لتكملة تعليمه وتدريبه في شئون الكنيسة والإشراف على مقاليد الأمور

فيها. وُلد كيرلس عام ٣٧٨م وأصبح تحت رعاية وإشراف خاله حين بلغ سن الاثنى عشر فصاعداً. درس قواعد اللغة والصرف والبلاغة في المدينة تقريباً حتى عام ٣٩٧م. ثم تلاها دراسات أعمق في المسيحية. كانت معرفته بالكتاب المقدس معرفة عميقة، وفي شبابه كانت مدرسة الإسكندرية في أوجها تحت إشراف العظيم في المفسرين ديديموس الضرير (+ ٣٩٨م)، وقد ساعدت هذه الفترة من الدراسة اللاهوتية والكتابية الرسمية في تقديمه للتقليد المبكر للكنيسة، وكثيراً ما اعتبر نفسه امتداداً لهذا التقليد. وفي الحقيقة، فإن القديس كيرلس هو فعلاً الذي بدأ المنهج اللاهوتي المسيحي الذي يستعين بالكتابات الآبائية السابقة، فهو يأخذ عنهم نصوصهم كدليل على "فكر القديسين". إن معرفته باللاهوتيين السكندريين الأوائل (خاصة القديس أثناسيوس)، والأعمال التفسيرية لذهبي الفم، والأعمال العقائدية للقديس غريغوريوس اللاهوتي هي معرفة شمولية.وقد وظَّفها جيداً في كتاباته الخاصة.[١٠]

كيرلس بطريركاً

وفي عام ٤٠٣م سيم كيرلس محاضراً وواعظ للكنيسة في الإسكندرية. وهو مركز ألقى على كاهله أعباءً فكرية وإدارية في قصر رئيس الأساقفة. وحين تنيح ثأوفيلوس في أكتوبر ٤١٢م حاولت الإدارة البيزنطية توقيف ترشيح كيرلس ودعمت رئيس الشمامسة المعين إجبارياً تيموثاوس. وهذه شهادة للتدعيم الواسع لكيرلس داخل الكنيسة المحلية. فبالرغم من تدعيم خصمه من الإدارة الحاكمة المحلية، إلا أنه تم انتخاب كيرلس كخليفة لثأوفيلوس وتم

[١٠] على سبيل المثال إستعان بعظة للقديس غريغوريوس النيصي عن ميلاد المسيح في كتابه المعروف : "ضد الذين يتصورون أن الله هيئة بشرية"، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، ٢٠١٣م.

سيامته ووضع الأيادي عليه في ١٨ أكتوبر عام ٤١٢م.

أظهرت الأيام الأولى لإدارة القديس كيرلس أنه من المصلحين البارزين، فقد أقام عدة تحركات ضد النفوذ المستمر للديانة الوثنية الأممية التي كانت لا تزال مؤثرة في عقول عامة الشعب. كان يتمتع القديس كيرلس بشخصية عظيمة وجذابة وسط الرهبان، وكانوا دائماً يسألونه النصح والإرشاد. ورسائله إلى الأديرة كانت مستمرة لا تخبو. وكان اثنان من كبار النساك بالإسقيط على صلة وطيدة به خاصة بقطر الناسك والقائد المواهبي لأكبر الأديرة في تانيس القديس شنودة رئيس المتوحدين.

استمر القديس كيرلس في قراءته للآباء وصاغ أعمالاً تعليمية تفسيرية ذات أسلوب يستحق كل الاهتمام. ولقد تم نسيانها فترة طويلة، إذ طغت عليها أعماله التي صاغها بعد عام ٤٢٨م أثناء أشرس صراع خاضته الكنيسة ضد الهرطقات، حيث اندلعت على الكنيسة عاصفة هوجاء لم تكن في حسبان أولئك الذين اشتركوا فيها. كانت أزمة أجبرت الجميع في المسيحية على فحص أسس التعليم عن يسوع والتي تسببت في انعقاد مجمع أفسس المسكوني سنة ٤٣١م ومجمع خلقيدونية عام ٤٥١م.

لقد كان القديس كيرلس هو الشخص الذي أسس رؤية محددة وواضحة المعالم للخريستولوجية (التعليم عن طبيعة وشخص المسيح)، خلال تلك الفترة واستمرت تعاليمه تهيمن على قرارات المجامع المسكونية حتى بعد نياحته.

واليوم مثلما كان الحال في زمان القديس كيرلس تُعتبر أعماله معياراً للأرثوذكسية في الشرق والغرب، حتى أكثر معارضيه

تشدداً وهو ثيودوريت أسقف قورش، جاء في نهاية الأمر واستخدم مصطلحات القديس كيرلس في تعليمه عن المسيح، وهو الذي قضى كل عمره يقاوم القديس كيرلس نفسه. وحتى هذا اليوم، فإن تعليم القديس كيرلس يمثل رؤية لاهوتية واضحة المعالم ومحددة لدى الفهم المسيحي الشرقي عن المسيح، وسر الفداء ومفاعيل التدبير الخلاصي الذي أحدثه التجسد الإلهي.

شخصية نسطور

كان نسطور راهباً سورياً عينه الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثاني على كرسي القسطنطينية بعد موت سيسينيوس. وقد أوصى به رئيس أساقفة أنطاكية يوحنا الذي كان مرسوماً حديثاً. وحين سيم نسطور رئيس أساقفة وجد كثيرين حوله لا يعرفونه معرفة شخصية، ورأوا أنه غير مناسب لمركزه الذي تبوأه. وعلى الفور بدأ نسطور عملية "إصلاح" لكنيسة يرى أنها متكاسلة. لقد أقنع الإمبراطور بتخفيض عدد الفتيات الراقصات اللاتي كن يرقصن في السيرك، لذا حظى بكراهية من جانب العديد من الجماهير التي كان التسابق والرقص الخلاعي يمثلان لهم عشقاً ورغبة شديدة. أيضاً، على الجانب الآخر، رأى نسطور أن الكثير من النُساك الرهبان يعيشون داخل المدن نفسها، حتى أن البعض منهم كان يعمل في خدمة الملك. فوجد نسطور أن هذا الأمر غير مقبول فقام بحرمانهم من الاشتراك مع الكنيسة المحلية أو الأعمال الأهلية. وباتخاذه هذا الإجراء أبعد عدداً كبيراً من النُساك الذين كان أكثرهم يحتلون مناصب عُليا لدى الأرستقراطيين المهمين والأقوياء والذين كانوا يوفرون لهم كل الحماية.

وبعد فترة وجيزة، أمر بالقوة إغلاق آخر كنيسة أريوسية في القسطنطينية وأضرم الجمهور النار في المباني في تحدٍ سافر له ولأوامره ولمحضريه من المحاكم، وقد دمرت النيران معظم الممتلكات آنذاك.

ومن أفدح أخطاء نسطور إبعاده شقيقة الإمبراطور أوجستا بولخاريا التي بالتحالف مع حزب الدير أثرت تأثيراً كبيراً في إضعاف سلطته السياسية حتى قبل أن يعرض القديس كيرلس تعليمه اللاهوتي بشكل علني. وخلال الصراع القائم ركز القديس كيرلس على الولاء الكامل لكرسيه وأيضاً على الدعم الدولي النشط. أما بالنسبة لنسطور حتى من الظاهر فإن كنيسته كانت تعاني من مرارة الانقسام وسرعان ما تبخر الدعم في بداية الأزمة تاركاً إياه معرضاً لكل جانب من جوانب الصراع.

وبمجرد وصول نسطور، نَفَرَ منه جماعة الرهبان خاصة من الطريقة التي كانت تدار بها الكنائس الصغيرة الأنطاكية. وقد قرروا التأثير على الكنيسة في القسطنطينية المركزية خاصة ما بها من تعاليم للاهوتيين من الأنطاك أمثال ديودور أسقف طرسوس، وثيودور أسقف مبسوسطيا، والمعتبرين في ذلك الوقت في البطريركية الأنطاكية لاهوتيين قياديين. لكنهما لم يتمتعا بنفس الشهرة العالمية التي كانت للقديس أثناسيوس أو الآباء الكبادوك.

لقد اقترب ديودور من قضية الخريستولوجي بشكل خاطيء، فهو يتحدث عن "ابنين" أحدهما "ابن الله" والآخر "ابن الإنسان". الناسوت الذي يعيش فيه الابن الإلهي في صلة حميمة. وبهذا الأسلوب كان يأمل في أن يحل بعضاً من الإشكاليات المتأصلة في تفسير الكتاب المقدس والتي بدت كأنها تنسب الخصائص الإلهية

وكذا الناسوتية بشكل عسر الفهم لنفس شخص الرب.

أما ثيودور أسقف المصيصه فقد لطَّف من هذه الطريقة في التفكير. لكن ظل يميل مثل أغلب الأنطاك في ذلك الوقت بالاقتراب من مدخل مسألة الخريستولوجي بطريقة تُفضل أن تتحدث عن الكلمة (اللوغوس) المرتبط بـ أو المتحد بـالإنسان يسوع الناصري.

وقد حاول نسطور أن يفرض هذه الطريقة في شرح اللاهوت على كنيسته، لكنها قوبلت بمعارضة شرسة منذ البداية، من لاهوتيين محليين مثل بروكاسوس (الذي صار فيما بعد رئيس أساقفة القسطنطينية)، وأيضاً من ممثلي كنائس أخرى خاصة روما والإسكندرية.

الحزب المعارض لنسطور اعترض على الطريقة التي رفضت بها كنيسته السماح بأرثوذكسية لقب "أم الله : ثيوطوكس" عن مريم وإنه انتهج منهج طريقته الأنطاكية. فقد دعم نسطور كنيسته في مواجهة العديد من الشكاوي. وسمح بأن تسمى مريم بأم الله تماماً مثلما تدعى أم الإنسان يسوع. لكن في نظره أنها تعبيرات معيبة وناقصة إذا توخينا دقة الحديث، فإنها بحسب رأيه لم تكن أم الله فقط، أو أم الإنسان وحسب بل هي أم المسيح. والمسيح لم يكن مجرد إله ولا مجرد إنسان. بل كان الله المتحد بإنسان أو إذا أحب المرء أن يقول هو إنسان متحد بالله.

لكن المعارضون قالوا: إن كانت مريم ليست "بحسب الكلام الدقيق" أم الله، إذن فإن يسوع ابنها ليس "بحسب الكلام الدقيق" هو الله.

إن بُسطاء الناس في المدينة قد أثرت فيهم هذه الصياغات التي تثير الشك في ألوهية المسيح، وآخرون عرفوا أن رئيس الأساقفة نسطور كان يفرض منطقاً خريستولوجياً غير مقبول على كنيسته

بقدرٍ من المخادعة.

لذا رأى القديس كيرلس أنه من الضروري صياغة تعليم لاهوتي على قدر كبير من الفكر العقلي الراجح، مع خبرة معاشة لدى المسيحي العادي. وفي بادئ الأمر تريث في التدخل، لكن خبراً عن الصراع كان قد بلغ أسماع أديرة مصر كلها مما تسبب في القلق هناك. وكان هذا ما أقنع القديس كيرلس أن يبدأ في التصرف ليدعو رفيقه الأصغر إلى العودة إلى النظام والترتيب.

فأرسل لنسطور رسائل يعلمه فيها بأن تعليمه هذا كان ناقصاً ومعيباً. وأرسل أيضاً ملفاً كاملاً لعظات نسطور إلى روما للنظر في القضية بأنفسهم. وكان رد الفعل من نسطور ملئ بتهديدات خفية إنه سوف يحكم على القديس كيرلس نفسه في كنيسة القسطنطينية، وأنه سوف يضاعف من جهوده لتفنيد وإسقاط تعليمه، معتبراً أن الذين يحفظون لقب "أم الله" خارجين مارقين وهراطقة، يخلطون الأساطير بالإيمان ويمزجون خصائص الألوهية بالناسوت بأن ينسبونها لنفس الشخص دون تمييز. إن الألفاظ مثل "تعب الله" أو "جسد الله" هي ألفاظ يحرم ناطقها فهي غير مقبولة تماماً وتثير ارتباكاً في اللفظ. فهي بحسب رأيه بلهاء، إن لم يكن من صميم فكر الهراطقة لكن ما اعتبره نسطور أسوأ التعاليم اللاهوتية المغالي فيها، كان القديس كيرلس من جهة أخرى يعتبرها حقاً أصيلاً مستعلناً بسر التجسد الإلهي، والمبدأ الفعلي الذي به إفتدى الجنس البشري.

أدت الأحداث التي حدثت بعد ذلك واحتدام الجدل والصراع إلى انعقاد مجمع مسكوني. واعتبر نسطور أن كيرلس يحاول أن يزعزع كنيسته في القسطنطينية مستخدماً النزاع اللاهوتي كذريعة. ويبدو

أنه اعتبر طريقته الخاصة بالتعليم اللاهوتي تقليدية، بالتمام والكمال. ولهذا فهي قياسية للدرجة التي تجعل كل مَنْ يتحدث بشكل آخر سواها إما جاهل أو ذو قصد خبيث شرير. لكن التقليد الأنطاكي الذي دعمه نسطور والذي كان في الحقيقة تقليد خاص لديودور وثيودور، لم يكن أبداً التقليد الأصيل للكنيسة. لذا اعتبره القديس كيرلس أنه في أحسن حالاته من الطرق المطاطة والمهجورة للكلام عن المسيح، وفي أسوأ حالاته إن لم يكن هرطوقياً في جوهره. فهو على الأقل يميل إلى إحداث نتائج هرطوقية ويتصف برتابته المخبطة.

خصومة القديس كيرلس السياسية المفترضة من جانب نسطور

إن شك نسطور أن القديس كيرلس كان مهتماً فقط بالهجوم عليه لأسباب سياسية كان من الأمور التي تثير السخرية، لأن نسطور نفسه هو وحدة كان مسئولاً عن عدم الاستقرار الشعبي لكنيسته، خاصة بالطريقة التي أبعد بها الرهبان والأرستقراطيين وسيدات البلاط الملكي وذلك بمجرد وصوله. وقد تركه عدم الاستقرار السياسي هذا عارياً أمام كل أعدائه، خاصة أولئك الذين من بين الأرستقراطيين الذين كانوا يميلون إلى تدعيمه، والذين عرفوا جيداً أنه في الصراع بين سلطة سيسينيوس ونساك القسطنطينية، فإن الرهبان هم الذين فازوا، مدعومين بقوة كبيرة ونفوذ عظيم للسيدة أوجستا بولخاريا. كان ضعفه في ديارة هو الذي أدى أيضاً إلى وقوعه في الخطأ في عدم تقدير أهمية القديس كيرلس كلاهوتي مميز والتقليل منه.

وقد ركز نسطور على خصومة كيرلس السياسية المفترضة وكان من حين لآخر يشجب كتاباته وكأنها عظات رديئة الكتابة لرجل تقي عاجز عن التعبير. تلك كانت هفوته التي كلفته كثيراً.

لأنه أخفق تماماً في قراءة موقف الأساقفة بشكل مسكوني، والذين كانوا يدركون أسلوب كيرلس ومنهجه لكنهم وجدوا أسلوب نسطور غريب عليهم ويتصف بالفرقعة الإعلامية.

نسطور يقترح على الإمبراطور عقد مجمع كبير

أصبح من الصعب الوصول إلى حلول سهلة داخل الكنيسة الكبرى، وقد أقترح نسطور على الإمبراطور عقد مجمع كبير لحسم المسألة. ويبدو أنه كان ينتوي بينه وبين نفسه أن يُعقد هذا المجمع في القسطنطينية وأن يترأسه هو كرئيس أساقفة. لكن القديس كيرلس لم يكن سلبيًا أبداً، فقد كتب إلى نسطور ورغم أن تبادل الرسائل بينهما لم يكن طيباً فإن نصوصه قُدر لها أن يًضفي عليها وقفة مسكونية مع بداية المجمع المزمع انعقاده كملخص وافٍ للنزاع. وقد صاغ أيضاً عدة أبحاث مهمة حول القضايا اللاهوتية التي على المحك. وقد أرسل ملفه إلى الإمبراطوريات وإلى آخرين على حدة، وإلى الأميرات بالبلاط الملكي وبولخاريا، وأفدوكسيا حيث كشف من كتاباته من الآباء لتدعيم القضية وللتأكيد على أن تعليم نسطور لم يكن سليماً ولا متوافقاً مع التقليد القديم.

البابا سيلستين وكيرلس

وفي هذه الآونة كانت الكنيسة في روما قد تسلمت أيضاً ملفة عن النصوص النسطورية. وحينما تسلم البابا سيلستين الملف الذي أعده القديس كيرلس وكان يحوي النصوص المتعلقة بعظات نسطور أرسلها إلى يوحنا كاسيان في مرسيليا طالباً تحليلاً تفصيلياً لها. وبعد أن كتب كاسيان تقريره عنها، عقد البابا مجمعاً في روما

ووجد نسطور مذنباً بالهرطقة، فطالب بتصحيح التعليم وتصفيته من الأخطاء محذراً بعقوبة الحرمان في حالة العناد والرفض. وسأل الباب سلستين كيرلس أن يوصل هذا الخبر إلى نسطور والكنائس الشرقية. وكان ذلك بمثابة تلاحم ضمني بين سلستين وكيرلس فيه تجاهل لقوانين مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م، معتبراً المدينة الملكية الكرسي الأول في الشرق. وقد قاومت كل من روما والإسكندرية الاعتراف بهذه القوانين وقصد التحالف القائم بين سلستين وكيرلس أن يضغط على فكرة مؤداها أنه بحسب الأقدمية فإن الإسكندرية تعتبر قبل روما وبحسب التقليد هي الكرسي الأول للشرق. وعند إدراكه للرفض السياسي المحتجب حينما سلمت إليه، فإن رد فعل نسطور كان بإهمال الترتيب المجمعي ومن ثم رفع شكواه إلى الإمبراطور.

وقد أبلغ القديس كيرلس نسطور بالخبر في "خطابه الثالث"[11] الذي أمهل نسطور عدة أيام ينقي فيها تعليمه أو يتعرض للحرم بواسطة كنائس روما والإسكندرية. كان هذا التهديد خطيراً في واقع الأمر، لكن حين تسلمه نسطور شعر أنه في مركز يؤهله أن يتجاهله. وكان قد أقنع الإمبراطور فعلاً أن يعقد مجمعاً مسكونياً يهيمن أساساً على المجامع المحلية في روما والإسكندرية. وقد هَبَّ الإمبراطور إلى العمل تحت الضغط المتزايد الذي أحدثه التصدع الكنسي الذي

[11] نقصد الرسالة ١٧ التي جاء فيها في فقرة ٣ الآتي: " لذلك فمع المجمع المقدس المنعقد في مدينة رومية العظيمة بالاشتراك مع وبرئاسة أخينا وشريكنا في الخدمة المقدس جدًا والمُكرم لله، كليستينوس الأسقف، نحن أيضًا بهذه الرسالة الثالثة نعترض عليك بوقار، ناصحين إياك أن تقلع عن التعاليم الشريرة جدًا والمنحرفة جدًا التى ترتئيها وتعلّم بها. وبدلاً من ذلك إختر الإيمان المسلّم للكنائس بواسطة الرسل القديسين والبشيرين الذين كانوا معاينين وخدامًا للكلمة. وإذا كنت، تقواك، لا تفعل هذا، حسب ما هو محدد ومبين في الرسالة السابق ذكرها المرسلة لك من أخينا وشريكنا في الخدمة المقدس جدًا والمُكرِم لله جدًا، كليستينوس، أسقف كنيسة رومية، فاعلم أنه ليس لك خدمة إكليريكية ولا مكان بيننا، ولا إحترام بين كهنة الله والأساقفة".

أصبح في الاتساع. فحدد الموعد في عيد الخمسين من عام ٤٣١م لاجتماع مسكوني وأرسل يستدعي الأساقفة من كل الكنائس الكبرى للاجتماع مع ممثليهم.

وكان نسطور يأمل أن ينعقد المجمع في وطنه الأم وعلى أرضه وتحت سيطرته وإشرافه وسرعان ما تحطم هذا الأمل ربما بسبب جهود أوجستا بولخاريا. وحين انتهي الجميع من الترتيبات النهائية، وافق الجميع للاجتماع في أفسس. وهي مدينة لم يكن نسطور يحظى فيها بقدر كبير من الاحترام والإجلال.

وقد ذهب القديس كيرلس، قبل التاريخ المحَّدد، إلى أفسس قادماً من الإسكندرية، ولقى ترحيباً حاراً من ميمنون، الأسقف المحلي. وعندما وصل نسطور بصحبة فرق الجند من القسطنطينية عومل من الأساقفة الحضور على أساس أنه محروم. وعلى الرغم من محاولته الظهور بمظهر مَنْ لا يعتد بالحكم بالقانون الصادر من روما والإسكندرية، فإن الأساقفة الآخرين طبقوا عليه بنود القانون بصرامة ومنعوه من الخدمة في أية كنيسة قبل أن تُناقش قضيته ويصدر بصددها حكم في المجمع الجديد. وقد ثار بسبب هذا الأمر، لكن شيئاً لم يهز القديس كيرلس أو ميمنون من الثبات على موقفهما. وتأخر وفد كنيسة روما في طريقه من الغرب، وهكذا الحال مع الوفد الأنطاكي بقيادة يوحنا الأنطاكي. قرر القديس كيرلس عدم الانتظار أكثر من ذلك. وبدأ يشكك في أن يوحنا الأنطاكي قد تعمد التأخير ليتحاشى الاشتراك في المحاكمة الكنسية لصديقه. وفي يوم الأحد ٢١ يونية عام ٤٣١م وجد كيرلس الأغلبية الحاضرة كافية (بلغ عددها ٢٠٠ أسقف)، لانعقاد المجمع. ورأس المجمع باعتباره

أكبر شخصية حاضرة وينوب عن البابا كما يشهد بذلك خطاب البابا سلستين للعام الماضي. وتمت قراءة أعمال نسطور بصوت عالٍ على الأساقفة المجتمعين، وتم أيضاً قراءة رسائل القديس كيرلس. وأُدينت أعمال نسطور بواسطة تصفيق الحضور كلهم، كما جرت العادة في المجامع الأسقفية. وقُبلت رسائل القديس كيرلس كعبارات من التعليم الأرثوذكسي. وفي نهاية هذا اليوم الصيفي الدرامي الطويل تجمهر الشعب حول كنيسة مريم (لا تزال بقاياها موجودة في أفسس حتى اليوم)، ومعهم مشاعل موقدة في بهيم الليل، ليسمعوا حكم المجمع. وعندما أُعلن أن نسطور تم حرمانة وتحريم تعليمه هتف الجميع بانتصار أم الله على المعاندين وعاد الأساقفة إلى مجالسهم بالمشاعل وفي تهليل كبير. أما المدينة التي كانت تصرخ ذات يوم بهدير هائل "عظيمة هي ديانا ربة أهل أفسس" فقد صرخت اليوم بهتافات لمريم أم الله. وهكذا أصبح تكريم العذراء محروساً لدى عامة الناس البسطاء وتأكد أكثرهم فكراً، وأيضاً الأساقفة أن هذا اللقب الذي يوقر مريم يشكل حقاً أساسياً عن المسيح وقد تأكد الحفاظ عليه هو أيضاً.

وبعد عدة أيام قليلة، فإن الوفد القادم من سوريا كان قد وصل فثار عند سماعة أن المجمع، الذي سافروا إليه في رحلة طويلة وشاقة، كان قد انتهى بدونهم. فدعا يوحنا الأنطاكي إلى مجمع مضاد على الرغم من أن فريقه كان يتكون من ٤٣ أسقفاً ولا يشكل إلا نسبة ضئيلة من مجموع الـ ٢٠٠ أسقف الذين اجتمعوا تحت قيادة القديس كيرلس. وقد أعلن المجمع هذا حرمان كيرلس وميمنون وكذلك كل الأساقفة الذين تم إيقافهم إلى أن يتوبوا في حين حسن.

وبعد عدة محاولات لعمل ترتيب ما مع الذين من سوريا اجتمع

المجمع الأرثوذكسي مرة أخرى وحرم الأساقفة السريان الأمر الذي أثار المدينة بأكملها ضدهم. وقد لجأ الجانبان للإمبراطور، الذي قام أخيراً برفض السماح لأي أسقف بترك المدينة حتى يتم حل كل الإشكاليات ثم أرسل وفداً للتفاوض لفحص القضايا موضع النقاش. وما أن وصل إلى أفسس حتى نفذت مؤن الطعام ومات كثيرون من البطاركة كبار السن.

وحين لاحظ المندوب الملكي بالاديوس مجريات الأحداث غادر ليضع تقريره ليرفعه للمحكمة العليا في العاصمة، عند هذه المرحلة وصل مندوبون عن البابا. وفي إحدى جلسات المجمع دعموا وصوتوا للمجلس الأرثوذكسي. وحين درس ثيودوسيوس التقارير أصدر قراراً مهماً بتأييد أحكام كلا الحزبين، وأكد على حرمان وإيقاف نسطور ولكن حرم معه القديس كيرلس وميمنون وأعلن قراره لتأييد تلك الأحكام ونفى المتهمين بالحرم ثم صرف الأساقفة من أفسس، ربما ليرأس مجموعة صغيرة ذات رأي قانوني في القسطنطينية، حيث لم تكن المشاعر متأججة وحتى يصبح الأمر كله تحت إشرافه الشخصي.

وأرسل الإمبراطور أمين الصندوق الملكي الكونت يوحنا، لنشر ذلك الخبر في أفسس وهو رجل معروف عنه أنه يحكم بعصا من حديد. واقتيد الأساقفة على يد كونت يوحنا خاصة عندما ألقى القبض فوراً على نسطور والقديس كيرلس وميمنون. لكنهم رفضوا التخلي عن إجراءات مجمع الكنيسة لإشراف سياسي صاخب ومتهور. وقد أذعن يوحنا الأنطاكي لقرار الإمبراطور رغم احتقار معظم رفقائه، لكن الـ ٢٠٠ أسقف الذين شكلوا فريق القديس كيرلس قد رفضوا أن يتخلوا عن قائدهم، خاصة وأن كل تعاليمهم ما هي إلا تأكيد لتعليمه

هو وأصروا على أن يُطلق سراح القديس كيرلس مطالبين أن يوافق على قرارهم المجمعي باعتباره القرار الشرعي والمجمعي الوحيد.

وأضطر كونت يوحنا إلى العودة إلى القسطنطينية ليرفع تقريراً بأن خطة الإمبراطور قد جاءت بعكس النتائج المرجوة وحينما عاد إلى العاصمة وجدها أيضاً في حالة هياج وثورة. وانتشر الخبر أن نسطور قد تم حرمه وشلحة، مما أثار موجة عارمة من الفرح، لكن حينما أضاف مبعوثو الإمبراطور أن القديس كيرلس وميمنون ألقى القبض عليهما أيضاً وأن المجلس قد أنفض تقريباً، اندلعت الثورة والتمرد، وتم احتلال الكاتدرائية وتم إرسال صرخة عالية وجلية، ليس عن طريق الجماهير وحدها، بل بواسطة ارستقراطيين لهم ثقلهم الاجتماعي وقادة الأديرة أن هذا الحل مرفوض نهائياً.

وإذ اندهش ثيودوسيوس لهذا القدر من التدعيم الذي لقيه القديس كيرلس، فقد أمر بعقد اجتماع يضم الأعضاء القياديين لكلا الجانبيين من الحزبين المتنازعين، للمناقشة والجدل في حضوره في أطراف ريف خلقيدونية. وبعد سماع القضية خلال عدة أسابيع، عاد مرة تلو المرة لتأييد موقف القديس كيرلس.

والذي جعل ثيودوسيوس يقرر هذا الأمر في النهاية، أن كل الأصوات بدت أنها مرفوعة لصالح القديس كيرلس، فيما عدا بعض الأصوات القليلة جداً من بعض السريان والذين قوبلوا بعدوانية من جانب الشعب المحلي في القسطنطينية. وتحالف مع هذا، المائتا أسقف المجتمعون في أفسس، رغم تكبدهم الكثير من المعاناة الجسدية، إلا أنهم رفضوا أن يتركوا مدينتهم خلال الصيف، حتى لو أمروا بذلك، ولم يوافقوا على التزحزح عن موقفهم حتى يتم إطلاق سراح القديس

كيرلس والتصديق على قرارات مجمعهم بواسطة الإمبراطور. تلك كانت المصداقية، أكثر من أي شئ آخر سواه، هي التي أثرت في ثيودوسيوس وقادته إلى الإقرار بمجلس الأغلبية الذي يملك قوة القانون الملكي.

غادر القديس كيرلس أفسس في خريف عام ٤٣١م وعاد ظافراً إلى كنيسته في الإسكندرية، وقد التمس نسطور لدى الإمبراطور لكي يعود إلى ديره بأنطاكية فسُمح له أن يفعل ذلك. وشغل مكان نسطور أسقف جديد هو مكسيميان. ورغم ذلك، عاد الأنطاك إلى الوطن رافضين أن يرفعوا حروماتهم ضد القديس كيرلس أو ميمنون ونشروا التقرير عبر مقاطعتهم البطريركية الكبيرة زاعمين أن مجمعهم ولقاءهم المجمعي هو فقط الذي كان "مجمع أفسس" الحقيقي بينما حُكم على لاهوت كيرلس بأنه مزيف!

ولأنهم استمروا في اعتبار نسطور قد حُكم عليه ظلماً، فقد رفض الأنطاك قبول شرعية رئيس الأساقفة الجديد مكسيميان، هكذا كانت روما والإسكندرية والقسطنطينية منفصلة عن الكنيسة الأنطاكية وكان هذا الحال من الأمور التي رفض الإمبراطور استمرارها. ولهذا ومنذ بداية عام ٤٣٢م بادر القصر الملكي بعملية مصالحة تهدف إلى تقارب وجهات النظر بين القديس كيرلس ويوحنا الأنطاكي.

استغرق الأمر عامين لكن خلال عام ٤٣٣م بلغ الأمر إلى الاقتناع المتبادل باستبدال بيان ملكي بين الإسكندرية وأنطاكية عُرِفَ باسم "صيغة الوحدة" وزعم كل جانب أن الآخر قد تنازل عن مطالبه ولا يزال العديد من الأنطاك من المعاندين يرفضون قبول المصالحة، مثلما فعل العديد من المعاندين في كنيسة كيرلس. وقد كان الفريق

الأول حتى خلقدونية، وبعد نفيهم أصبحوا نواة لما سُمى بالكنيسة النسطورية (الآشورية)، حيث أنهم تركوا الحدود الملكية لينشطوا أكثر فأكثر عند حدود فارس. أما المجموعة الأخرى فظنت أن كيرلس قد تنازل بالكثير من الطلبات للأنطاك حيث تم التعبير عن التعليم الخريستولوجي ببعض ألفاظهم ومصطلحاتهم. وقد اعتقدوا أن الرجل الكبير قد بدأ يفقد قبضته فسببت لكيرلس متاعب كثيرة في أواخر أيامه.

إن تحليل صيغة الاتحاد تُظهِر أن تقدير القديس كيرلس للمصالحة كان تقديراً سليماً، لقد شعر الرجل أنه اهتم كثيراً بالألفاظ لكنه لم يتقدم في قضايا المبدأ. وقد صنع تمييزاً مهماً لم يتم الحفاظ عليه بواسطة المعلقين آنذاك، بأن هناك عالماً من الاختلاف بين الخريستولوجيا الأصيلة للكنيسة الأنطاكية ويمثلها يوحنا الأنطاكي، والخريستولوجيا المنحرفة لنسطور، والتي كانت هرطوقية إذ أنها قسمت المسيح إلى اثنين.

وفي النوات التالية لاستعادة سلام الكنيسة كانت سمعة القديس كيرلس قد استقرت باعتباره اللاهوتي القائد للعالم المسيحي. وقد داوم على الكتابة فحرر عدداً ضخماً من الكتب، تشمل المباحث اللاهوتية، والتفسيرات الكتابية وفي عام ٤٣٨م سأله الإمبراطور أن يصحب زوجته أفدوكسيا. وعندما كان في المدينة المقدسة دخل في لقاء وفد من سوريا أخبره أنه في مناطق شاسعة من هذه الأيبارشية لا يزال التقرير المزيف الخاص بأفسس يحظى بشعبية كبيرة وأن كتابات ديودور وثيودور أسقف المصيصه معلمي نسطور لا تزال محل تقدير أعلى السلطات اللاهوتية، وكأن إدانة نسطور لم تكن تعني أي شئ لديهم على الإطلاق.

وحينما عاد القديس كيرلس إلى الإسكندرية، قرر أن يبدأ صراعاً جديداً مرة أخرى، وهذه المرة كان قد تأكد أنه إن لم يظهر وبشكل محدد أن هذه الكتابات مضلة وخطيرة فإن مكاسب مجمع أفسس سوف تصير بلا فائدة. ولهذه الغاية أعد حملة مكثفة ومنظمة لينقد أعمال ديودور وثيودور. كانت مهمته تزداد صعوبة من حقيقة أن هذين الشخصين كانا معتبرين من القديسين اللاهوتيين القياديين في سوريا.

وحينما سأل القديس كيرلس رئيس أساقفة القسطنطينية الجديد بروكلوس، أن يساعده في حملته قوبل بنفور ورفض. وطلب الإمبراطور من بروكلوس أن يستخدم كل مهارته الدبلوماسية لعقد مصالحة وتقريب وجهات النظر لإزالة الخلافات القائمة داخل الكنيسة الأنطاكية. واعتقد بروكلوس أن القديس كيرلس قد يجعل الأمور تنتقل من سيئ إلى أسوأ. وضد حكمة الصادق، وتحت ضغط شديد من البلاط، وافق كيرلس على التصرف بشكل أكثر حذراً. وكان لا يزال يكتب مباحث يهاجم ثيودور وديودور باعتبارهما معلمين ومصادر لهرطقة نسطور، لكنه ومع مرور الوقت جعل دفاعياته أقل مواجهة.

كان حكم القديس كيرلس على الأمور حكماً أثبت أنه فقط شديد التنبؤ ولم يستطع بروكلوس في النهاية، أن يضع حلاً دائماً وكانت بصيرة القديس كيرلس هي المعتمدة في المجمع الثاني للقسطنطينية عام ٥٥٣م حين تبع جوستنيان دعوة القديس كيرلس لرفض محدد لهذه الأعمال من قانون الأرثوذكسية وقد تم حرم كل من ديودور وثيودور على ضوء استعادة أحداث الماضي.

وفي سنواته الأخيرة، كان قادراً على النظر في مجريات الجدل النسطوري كله، حتى أن القديس كيرلس صاغ مبحث عن " المسيح واحد" والذي كان قد اعتبر واحداً من أهم أعماله اللاهوتية الناضجة. والذي وضع عرضاً لاهوتياً شاملاً يبين الأسباب التي تجعل التقليد الأنطاكي القائل بوجود "ابنين" تقليداً خاطئًا لا يمكن قبوله كتقليد أصيل في الكنيسة، وقد استغرق القديس كيرلس وقت لضربات جانبية عديدة ضد المدَّ الكبير والاعتبار الذي أولته الكنيسة الأنطاكية لكل من ديودور وثيودور.

وحينما كان القديس كيرلس يكتب بحثه، كان خصمه نسطور قد أُعيد ألقاء القبض عليه لرفضه إيقاف حرب الكراريس (كتابة الكراريس) وقد نُفي أولاً إلى مدينة الوردة الحمراء في بترا العربية بالواحات الكبرى في الصحراء المصرية، وأخيراً قضى في المنفى الطويل الأجل (مدى الحياة). في مستعمرة العتوية في الواحة الكبرى في الصحراء. وحتى هذا الوقت لم تكن نار الصراع قد هدأت بعد. لم تكن المسألة أيضاً مسألة خمود هذه النيران لأنه سرعان ما كان الجدل كله يحتدم من جديد في مجمع أفسس (٤٤٩م)، ومجمع خلقيدونية (٤٥١م). وفي الحقيقة كانت آثار الانقسام بادية للعيان في الكنيسة اليوم.

وفي نهاية حياته كانت رسائل القديس كيرلس إلى يوحنا الأنطاكي وثيودوريت أسقف قورش، الذي كان من أكبر معارضيه ولسنوات طويلة، كانت تُظهِر أن قدراً حقيقياً من المصالحة الشخصية والتعليمية قد تحقق. وفي هذه الأثناء كان القديس كيرلس رجلاً طاعناً في السن ومريضاً وقد مات يوحنا الأنطاكي قبلة وظل نسطور حياً بعده بحوالي ستة أو سبع سنوات وقد عانى القديس كيرلس من أمراض

عديدة في مجرى حياته، وفي عام ٤٤٤م ظل ملازماً الفراش حتى آخر العمر. وقد تنيح في ٢٧ يونيه عام ٤٤٤م، وقد ناهز السبعين بقليل.

موجز التعليم الخريستولوجي عند القديس كيرلس(١٢)

ليس من قبيل المبالغة أن نصف القديس كيرلس كواحد من أعظم وأقدر لاهوتي الكنيسة. ومثلما هو متوقع من واحد عمل في حقبة من الزمن كانت المصطلحات المسيحية فيه تتطلب قدراً غير عادي من إعادة النظر في كل كلمة تُقال، فإن تعليمه كان دقيقاً وتقنياً، ومفعماً بالعمق الفلسفي. وإحدى أعظم إسهاماته في التاريخ المسيحي تلك الطريقة التي كان يتمم بها خطة اصطلاحية دقيقة في أبحاثه وشروحاته ومن الخطأ اعتبار هذا الأمر سبباً في جعل القديس كيرلس كاتباً مملاً أو ثقيل الظل. إن هناك نصوصاً تظهر كما هو الحال مع أي كاتب بليغ من القدماء، قدرته على تعميق الجدل من خلال تنويعات مختلفة تفوق أحياناً قدرة وتحمل قراء معاصرين لكن عبر كل أعماله هناك روح العاطفة المتأججة والحمية الروحية الدينية التي تتواصل ذاتياً مع أولئك الذين لديهم عيون للرؤية وآذان للسمع.

أولاً: لقد تأثر القديس كيرلس بفهم صوفي رائع وعميق لقدرة الله الكائنة فيه، تلك القدرة التي تجعل تجسد الله **الكلمة** هو السبيل الوحيد والأهم الذي من خلاله يختبر الإنسان المسيحي حضور الرب وأثار نعمته المؤلهة. يقول القديس كيرلس: «يقولون – الهراطقة - إن **كلمة** الله لم يصر جسداً، أي لم يُولد بحسب الجسد من امرأة ويبطلون بذلك

[12] ST Cyril of Alexandria، On The Unity Of Christ، Translated and with an Introduction by John Anthony Mcguckin، st vladimir seminary press Crestwood، NY 10707 1995، pp.32-47
انظر المقدمة وهي مرجع أساسي لنا.

تدبير الخلاص. لأنه إن لم يفتقر ويخلي ذاته ويأخذ ما يخصنا من محبته للبشر، ما كان في إمكاننا أن نكتسب كل ما له ونظل مقيدون بقيود فقرنا وباللعنة وبموت الخطية. لأن تجسد الكلمة أبطل كل ما حلَّ بالطبيعة البشرية من لعنة وعقوبة. إذاً لو اقتلعوا جذر خلاصنا، وهدموا أساس رجائنا، ما الذي يبقى معنا بعد هذا؟ لأنه ـ كما قلت ـ إن لم يصر الكلمة جسداً ما كانت قوة الموت قُهرت، ولا الخطية أبُطلت بأي طريقة، وظللنا نحن مقيدين بسبب عصيان الإنسان الأول أقصد آدم، بدون أي إعادة تجديد، أقصد تغيير للأفضل بواسطة المسيح مخلص الجميع» (المسيح واحد)[١٣]. هذه الروح الدينية بوجه خاص وهذه الروح العملية الوثابة نراها جلية حتى في تلك النصوص التي يعول فيها كاتبنا على فطنة قرائه الفلسفية.

وفي كل مرة يذكر فيها نسطور، فإن اللغة عن التجسد عليها أن تظهر مفهوماً أولياً عن الفارق بين اللاهوت والناسوت. وتلك المسافة الفاصلة بين الله وخلائقه، وتلك بين الصفات الإلهية والإنسانية للمسيح، وحين تؤسس اللغة تلك الإختلافات الواردة بالنصوص يمكن للذهن المسيحي أن يقدر مدى قرب ذلك الإله الذي دخل في شخص يسوع المسيح في علاقة شركة وقرب مع البشرية. فإن كان مجموع ألفاظ نسطور مشوشة بعض الشئ حول المسألة الحرجة عما إذا كان ذلك الإنسان (يسوع) كان أو لم يكن هو الله. ثم على الأقل، كما رأى هو، فإن هذا الفرض من جانبه والذي يصر على التكامل التام لكل العناصر التي تضمنته. فإن الله والمخلوق كانا مختلفين اختلافاً جذرياً، وكان يسوع إنساناً بالكامل من كل جهة،

١٣ قد أخذنا نصوص المسيح واحد بعد ترجمته للغة العربية من الأصل اليوناني الموجود في مجلد EPE 9، 279-429. الجدير بالذكر أن كتاب: المسيح واحد قد نشره المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ترجمة د. جورج حبيب عام ١٩٨٦م

مثل تلك المحدودية البشرية في الإدراك والنفسية والقدرة، بينما الله اللوغوس هو الله بالكامل لا يحده ولا يعوقه جسد يسوع البشري.

وبالنسبة لنسطور، فإن الحياة البشرية ليسوع كانت مشتركة مع اللوغوس، لكنها ليست تلك الحياة التي تتسيد عليه أو تخضعه بأي شكل: « مازال الهراطقة يسلكون طريقاً مختلفاً مفسرين بدون تبصر سر التقوى. يقولون إن الله **الكلمة** أخذ إنسان كامل من نسل إبراهيم وداود بحسب أقوال الكتب المقدسة (انظر يو ٧: ٤٢)، وكان هذا الإنسان من نفس طبيعة أولئك، أي من نسل الذين آتى منهم، إنسان كامل من جهة الطبيعة مكوّن من نفس عاقلة وجسد بشري. يقولون أنه كان إنساناً مثلنا بحسب الطبيعة، إنه كُوِّن بقوة الروح القدس داخل رحم العذراء ووُلد من امرأة وخضع للناموس لكي يشترينا كلنا من عبودية الناموس (انظر غل ٤: ٤- ٥) ويجعلنا نشترك في البنوة، التي من القدم جداً قد عُينت لنا ويقولون أن **الكلمة** أتحد بهذا الإنسان بطريقة جديدة جاعلاً إياه يذوق الموت وفق ناموس البشر، ويقيمه من الموت مُصعداً إياه إلى السماء وواضعاً إياه ليجلس عن يمين الله (انظر أف ١: ٢٠- ٢١)، هكذا صار فوق أي رئاسة وسلطان وقوة وربوبية وأي اسم ليس فقط في هذا العالم بل في الدهر الآتي، إذ هو في مصاحبة لا تنفصل مع الطبيعة الإلهية، وقد أرتضى أن يُسجد له من كل الخليقة، الخليقة كلها تُقدم العبادة له بصلة ذهنية لله.» (المسيح واحد).

لكن كان تعليم القديس كيرلس عن التجسد يسير في طريق مضاد لِما يقوله نسطور. فقد وجد مفهوم «شركة أو اتحاد» الكلمة مع إنسان أمراً يتنافى مع التقليد المسيحي على أساسين:

الأول، أن ذلك يجعل هناك قليلاً من التمييز بين يسوع وبين أي من الأنبياء القدامي الذي يمكن أيضاً أن يقال عنه أن فيه الله يلهمه ويوحي إليه أو أن الله «يسكن فيه». يقول القديس كيرلس عن الهراطقة: «قد انزلقوا دائماً لمثل هذا المستوى من الجهل حتى أنهم يعتقدون ويقولون أن **كلمة** الله وحيد الجنس نفسه لم يصر مثلنا لكن أخذ إنساناً، لكن بأي طريقة يريدون لنا أن ندرك هذا الأخذ؟ ربما مثل شخص عُين من قِبل الله لكي يحمل أمراً يريده هو، بالطريقة التي تكلم عنها أحد الأنبياء القديسين: «لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبي، بل أنا راعٍ وجاني جميز، فأخذني الرب من وراء الضأن وقال لي الرب اذهبْ تنبأ لشعبي إسرائيل» (عا ٧: ١٥) لأنه بينما كان راعي جميز جعله نبي وأرسله لكي يكون خادماً لمشيئته» (المسيح واحد).

والثاني، إن هذا الأمر لا يفيد شيئاً في إيصال ونقل القوة والحميمة بدرجة كافية كقوة وحميمة «للاتحاد» بين اللاهوت والناسوت، أو لا تكفي لإحداث تأثيرات بالغة على الطبيعة البشرية، والتي يراها القديس كيرلس هي صميم كل التجسد والغاية النهائية منه، إذ يقول: [بالرغم من أن كلمة الله الوحيد الجنس صار مثلنا ودخل في مقاييس العبودية بحسب الطبيعة البشرية، يشهد لحقيقة أنه حر بحسب الطبيعة قائلاً عند دفع الجزية «إن البنين أحراراً» (مت ١٧: ٢٦). إذن قَبِل صورة العبد آخذاً خواص الإخلاء وبدون أن يحتقر تشبهه بنا. لأنه لم يكن من الممكن أن يَكِرم العبد بطريقة أخرى إلا بجعل خواص العبد خاصة به، لكي تصير بهيّة بمجده الخاص. لأن المتفوق ينتصر دائماً، وهكذا قد تم إزالة عار عبوديتنا. لأن الذي كان أسمى منا صار مثلنا والحُر من طبيعته دخل إلى تقييدات حياتنا. بهذه الطريقة منحنا ـ إذن ـ الكرامة. إذ دُعينا نحن أبناء الله واكتسبنا أباه الحقيقي

الخاص به أباً لنا. كل ما هو بشري صار له. بالتالي عندما نقول أن الابن الحقيقي أخذ صورة عبد نقصد كل سر تدبير التجسد. لكن إذا اعترفوا بأن **الكلمة** الذي آتي من الله الآب هو واحد ورب ثم يقولون أن إنساناً بسيطاً من نسل داود صار مشاركاً له في البنوة والمجد، فإنها ساعة لكي نحزن عليهم من حُبنا لهم ونقول لهؤلاء الذين فضّلوا أن يؤمنوا هكذا «يا ليت رأسي ماء وعينيَّ ينبوع دموع فأبكي نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبي (أر ٩: ١)، لأنهم انحرفوا إلى رأي شرير، «إذ هم ينكرون الرب الذي اشتراهم» (٢ بط ٢: ١)] (المسيح واحد).

باختصار فإنه بالنسبة للقديس كيرلس فالرسالة الأولى والأساسية ليست حول العلاقة المتفردة بين الله والإنسان، بل هي تخص شيئاً لا يقل عن مصالحة الإنسان والله في يسوع.

عرض القديس كيرلس بإصرار وعلى الدوام الكلمة المفتاح (الدليل)، "اتحاد" ضد الكلمة التي استخدمها الأنطاكيون "علاقة أو اتصال". يقول القديس كيرلس: " لماذا يتركون كلمة "اتحاد" بالرغم من أنها كلمة مفهومة بسهولة وقد أتت من الآباء، ويستخدمون كلمة "مصاحبة"؟ إن كلمة "اتحاد" ليس لها مفهوم خلط أثنين معاً، وتظهر بالأفضل أن الاثنين صارا في وحدة واحدة بسبب اتحادهما معاً. وعلى أي حال لا يقال، وحدة واحدة فقط لذاك الذي هو بمثابة نوع واحد بسيط بل تقال على اثنين أو أكثر وأيضاً مختلفين في الأنواع" (المسيح واحد).

وقد أصرَّ القديس كيرلس على أن التجسد الإلهي ليس لأجل خاطر الله، بل لفداء الجنس البشري. وبهذا فإن ال "تدبير" "إيكونوميا"

هي خطة عملية تعني شيئاً تفعله وتتممه[١٤]. ففي التجسد يعمل الله بين الخليقة، وهو لا يعمل مجرد عمل يشبه مَنْ يمثل دوراً يؤديه على خشبة مسرح العالم، بل إن هذا العمل سري وهو بمثابة تحول مستحيل للحياة البشرية لتلاميذه إلى حياة جديدة جذرياً وهذا التحول الدينامي هو بمثابة «تقديس» أو «تأليه» هو أمر حاسم في فكر القديس كيرلس، أنه في الحقيقة حجر الزاوية أو العمود الأساسي، وأولئك الذين اتهموا القديس كيرلس فإنه كان في منتهي الفروسية في موقفه حِيال يسوع وخاصة حيال خبرة يسوع الحقيقية للحياة البشرية، قد أخفقوا تماماً في تقدير فكره، إن الرب الإله يختبر حقاً كل ما للإنسان من مشاعر أصيلة لكي يحول المائت إلى عدم الموت.

ويدرك القديس كيرلس أن تجسد الله وتأنسه ليس حدثاً ساكناً (استاتيكي) بل هو النموذج والأصل للعملية بأكملها. إنه يشير إلى اتحاد الله بالإنسان اتحاداً لا ينفصم، في شخص يسوع الإلهي الوحيد، فهو الله والإنسان حقاً في آنٍ واحد. وهو الأمر المؤسس على شخص المسيح الواحد الوحيد، وهو ليس مجرد سر لحضور الله بيننا بل سر كيفية تحول حياتنا البشرية الشخصية إلى حياته الإلهية، وكيفية تحولها بنفس الطريقة. باختصار فإنه وحسب فكر القديس كيرلس فإن طريقة التجسد مماثلة لطريقة التقديس والتجلى لتلاميذ المسيح.

[١٤] سبق للقديس أثناسيوس أن شرح هذا الأمر بكل وضوح، إذ قال: "فإله الجميع إذن، عندما خلقنا **بكلمته** الذاتي ولأنه كان يعرف أمورنا أكثر منا ويعرف مقدماً أننا رغم أنه قد خلقنا صالحين إلا أننا سنكون فيما بعد مخالفين للوصية، وأننا سنُطرد من الجنة بسبب العصيان. ولأنه هو محب البشر وصالح فقد أعد من قبل تدبير خلاصنا **بكلمته** الذاتي الذي به أيضاً خلقنا. لأننا حتى إن كنا قد خُدعنا بواسطة الحيّة وسقطنا فلا نبقى أمواتاً كليةً بل يصير بل يصير لنا بالكلمة الفداء والخلاص لذي سبق إعداده لنا لكي نقوم من جديد ونظل غير مائتين، وذلك عندما «خُلِق» هو من أجلنا «بدء الطرق» وصار «بكر الخليقة» و «بكر إخوة» وقام «باكورة الأموات». ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، المرجع السابق، فقرة ٧٥، ص ١٣٩.

وعملية التحول والتجديد هذه، يشير إليها معلمي كنيسة الإسكندرية بأنها ''تأليه'' كما صاغها القديسان إيرينيوس وأثناسيوس بشكل دقيق منذ قرون مبكرة خلت: [لقد صار الكلمة إنساناً ليصير الإنسان إلهاً] والقديس كيرلس بدوره يعلم قائلاً : [ما كانه بالطبيعة نصيره نحن بالنعمة]. **ولا يعني التأليه ذلك المفهوم الوثني بأن نصير آلهة وإلا أصبح ما نردده مثل الأساطير المغرقة في الجهل، بل على النقيض يمثل شيئاً آخر مخالفاً تماماً.** وفي فكر القديس كيرلس فإنه حين صار الكلمة متجسداً فقد جمع كنيسته إلى نموذج جديد وكيان جديد. وقبل التجسد الإلهي كان «الإلهي» و «الإنساني» يمثلان من حيث الوجود والكيان فئتين مختلفتين. وكانت بينهما هوة واسعة وكبيرة، هوة بين الخالق والمخلوق، ليس فقط على المستوى الأخلاقي بل الوجودى. وبعد التجسد، فإن نظام الوجود قد تغير تغيراً جذرياً. وفي التجسد أصبح الواقعان أو الكيانان الحقيقيان واللذان كانا على المستوى الفلسفي واللاهوت مستحيلين من حيث اتحادهما أو ارتباطهما معاً، قد اتحد بشكل عملي وظاهر في المسيح. وهذا الاتحاد هو مستحيل، لكنه رغم ذلك قد تم كفعل بسيط من أفعال قدرة الله اللامحدوده، وصار الرب غير المنظور صار الآن منظوراً، وغير الجسداني صار الآن جسداً. وذاك غير المحدود قد قَّبل محدودية حياة أرضية، وغير المائت أرتضى لنفسه أن يموت ويحيا. كان يطبق القديس كيرلس مثل هذه المضادات الظاهرية (بارادوكسا) في اللغة. ومثل هذا التباين كان يعطي فكره رفعة ودفعة روحية وقوة شديدة حيث كان يعرف جيداً كيف يوظفها لتؤثر تأثيراً قوياً في كرازته فهو يتهم نسطور بأنه سريع الحكم على ما لا يليق بالله أن يكونه بمنطق بشري قاصر. ومثلما يرى القديس كيرلس فإن نسطور قد نسى أن المنطق

البشري منطق سطحي وضحل بسبب الخطية والرؤية المحدودة القاصرة الناشئة عن فساد طبيعتنا. إن الجدل في المنهج اللاهوتي كان كثيفاً جداً وشديد الوطأة بين القديس كيرلس ونسطور وقد تحول بدوره إلى نزاع فكري مهم حول التفسير الصحيح لنصوص الكتاب المقدس. وفي كلا الحالتين، قاوم القديس كيرلس تطبيق المنطق وحده كمرشد ودليل للفكر المسيحي، ولجأ إلى التقليد بكل مفاهيمه ومعانيه فهو الذي يعلن ما فيه من خبرة روحية وداخلية، عبر أجيال عديدة من القديسين واللاهوتيين.

لكن وعلى الرغم من لجوئه إلى المعتقد التقليدي الراسخ، فإن لغته في تناوله لقضايا الكنيسة لم تستخدم المفاهيم شبه الوثنية عن الله. فالوثنية تزعم في قولها عن الإله زيوس أن الآلهة يمكنها أن تهبط إلى الأرض وتحول أو تغير هيئتها لتعيش في شكل مادي.

حاشا للقديس كيرلس أن يلجأ إلى هذا ـ كما كان يجادل ـ أن التجسد لم يحد من قدرة الله اللامحدودة ولا حتى أزالها بل هي وببساطة تعبير أو فعل لهذه القدرة اللانهائية، وهي تضغط على قصور فهمنا نحن، لكنها في حد ذاتها ليست مناقضة أو مضادة للمنطق والعقل (مثلما أتهم نسطور)، وأن نتخيل أن قدرة الله اللوغوس الكلمة تلك القدرة النهائية قد تحد بواسطة الحياة الإنسانية (الناسوت) التي يحياها الله الكلمة الآن معناها أننا نعتبره وقد تخلى أو ركن لاهوته أو ألوهيته حينما صار إنساناً. لهذا رفض القديس كيرلس هذا المفهوم وجادله قائلاً إن من كان الله منذ الأبد صار إنساناً بينما ظل وإلى الأبد أيضاً ما كان عليه (أي إلهاً) هذا هو الله الأبدي. يقول القديس كيرلس: " لأنه لم يكن من المستحيل لله محب البشر أن يجعل ذاته قادرة على تحمل

محدودية (قيود) الطبيعة البشرية، وهذا قد سبق وقيل لنا بطريقة رمزية معلمة إيانا أسفار موسى وراسمة لنا بأمثلة سر التأنس. حقاً لقد نزل الله في صورة نار على العليقة في البرية، وجعلت النار العليقة تلمع وتضيء، لكن العليقة لم تحترق. تحير موسى من المشهد (انظر خر ٣: ٢، ١٠). أليست الشجرة لم تكن تتناسب (تتوافق) مع النار؟ كيف تحملت الشجرة ذات المادة سريعة الاشتعال اللهب؟ لكن – كما قلت – المشهد كان صورة للسر الذي أظهر كيف أن طبيعة الكلمة الإلهية يمكن أن تحتمل محدودية الطبيعة البشرية، بالطبع لأنه أراد ذاك، لأن أمامه لا يوجد شئ مستحيل" (المسيح واحد).

لكن هل هذا يعني أن نجعل اللاهوت مجرد لغز بلا معنى؟ أو أن نجعل الحياة الإنسانية ليسوع مجرد تظاهر أو إدعاء أو عامل سرعان ما يزول تماماً في وجه الحضور الطاغي والمهيمن للاهوت الذي فوقه؟

وقد جادل القديس كيرلس أن ذلك هو فقط فِكر الذين فشلوا تماماً في فِهم أن التجسد كان بالأساس فعلاً زمنياً لغاية خلاص وإنقاذ الجنس البشري، هو فعل يمكن أن يُفهم ضمن خطة أوسع لمحبة الله الكبيرة للبشر ولتدبيره وعنايته بالعالم. إن التجسد الطبيعي كان محبة الله للبشرية ذات طابع خاص وإلهي، بقصد شفائها فهي مرسلة إلى الخليقة المادية، بفرض إحداث تأثير يتم على المستوى الطبيعي المادي (الفيزيقي) وتُعيد الخليقة المادية إلى شركة مع الله ترفع قدراتها المادية، دون أن يتحاشى أبداً هذه المادية. وهذا الوضع الكياني وذلك المخلوق الذي يرفعه الله كان بالنسبة للقديس كيرلس سراً لكن ليس منافياً للمنطق، على العكس هو وَعدْ أعلنه الله للعالم في تعليم أو عقيدة جسد القيامة الممجد. يقول القديس كيرلس: "ليس

ببساطة يُدعى الكلمة (الذي أتى من الله) - كما قلت - بل عندما صار مثلنا. ونقول إنه هو طالما أن عملية الإحياء لا تنتمي إلى الطبيعة البشرية بل بالحري إلى الطبيعة الإلهية. وهو آدم الأخير بسبب أنه وُلد من آدم بالجسد، وهو البداية الثانية للبشر، طالما بواسطته تحولت الطبيعة البشرية إلى حياة جديدة، حياة القداسة وعدم الموت بالقيامة من الأموات. هكذا أُبيد الموت، بسبب أن الحياة بحسب الطبيعة لم تطق أن يخضع جسدها للفساد، لأنه لم يكن ممكناً أن يُمسك المسيح مقيداً منه وفق ما قاله بولس (انظر عب ٢: ١٠- ١٥)، وانتقل بهذه الطريقة إلينا نحن أنفسنا الصلاح. الذي نتج من هذا الإنجاز" (المسيح واحد).

ومثلما رأى القديس كيرلس الأمر، فإن القدرة الإلهية في الرب المتجسد لم تبذل جهدها في أن تعبر عن نفسها بشكل متناقض أو متعاكس، أو بشكل يضاد الصور الأخرى للحياة البشرية (بما فيها الوعي الإنساني). بل على النقيض من ذلك، كان هذا الفعل هو منتهى صميم الوسط الذي سمح لكل صور الحياة الأخرى أن تستقر وأن تتطور وتتقدم. يشرح القديس كيرلس بكل وضوح هذا الأمر في تفسير إنجيل لوقا وبالتحديد نص لو ٢: ٥٢، إذ يقول: «أن يُقال إنَّ «الطفل كان ينمو ويتقوى بالروح، ممتلئاً حكمة وكانت نعمة الله عليه»، هذا الكلام ينبغي أن يؤخذ على أنه يشير إلى طبيعته البشرية، وأرجو أن تفحصوا باهتمام في عمق التدبير: فالكلمة يحتمل ويقبل أن يولد في صورة بشرية، رغم أنه في طبيعته الإلهية ليس له بداية وليس خاضعاً للزمن. والذي هو إله كامل تماماً من كل ناحية، يخضع للنمو الجسدي. وغير الجسدي صارت له أطراف تنمو مع نمو بشريته. والذي هو نفسه الحكمة كلها يمتلئ بالحكمة. وماذا نقول

عن هذا؟ ـ فإن الذي كان في صورة الآب ـ قد صار مثلنا، والغني أخذ صورة الفقر، والعالي أخذ صورة الاتضاع، والذي له الملء يُقال عنه إنه ينال ويأخذ»[١٥].

وفي فكر القديس كيرلس، فإن اللاهوت والناسوت ليسا مثل وزنين على زوج من المقاييس موضوعين في ميزان عسر في المسيح،بل بالحرى كان واحد منهما هو الوسط المغذي للآخر تماماً مثلما كان لاهوت المسيح لم يثبط أو يزيف بشريته الخاصة (ناسوته)، هكذا أدرك القديس كيرلس الأمر أنه كان ذلك النموذج الأصلي بالنسبة للإنسان المفدي، فالاتحاد بالله لا يقلص أو يختزل الفردانية (الشخصية الفردية) بل بالحرى يحرر الشخصية ويحفزها. وبقدر ما كان القديس كيرلس مهتماً بالأمر، فإنه حتى الحياة الإنسانية العادية تعبر في عمقها عن أنين روحي وسمو يسعى جاهداً أن يوظف حالته المادية كجزء من سموها الروحي، أو بعبارة أخرى تعبر عن هويتها الروحية من خلال وعيها المادي. وحسب فكر القديس كيرلس، فإن ما كان صادقاً عن الجنس البشري كله، أعنى أنه يستقر على المستوى الوجودي ويستمر في هذا الوجود داخل مدار حضور الله القوى. هذا الأمر قد صار وبوجه خاص جداً «ذا خصوصية» في حالة المسيح، الذي كانت بشريته تعبيراً فريداً ومباشراً وشخصياً عن الحضور الإلهي. يقول القديس كيرلس: " تتقدم الطبيعة البشرية في الحكمة وفقاً للطريقة الآتية: الحكمة الذي هو كلمة الله اتخذ الطبيعة البشرية فتألَّهت[١٦] وهذا بُرهِنَ من خلال أعمال الجسد، والنتائج

---

[١٥] القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، سنة ٢٠٠٧، عظة ٥، ص٥١.

[١٦] يقصد مسألة تبادل الخواص بسبب إتحاد اللاهوت بالناسوت كاتحاد الحديد بالنار، ونحن نعترف بأن لاهوته لم يفارق ناسوته ولو للحظة أو طرفة عين، وهذا الاتحاد هو بلا امتزاج أو اختلاط

العجيبة في أعين أولئك الذين يرون الهيكل (الجسد) الذي أخذه، جعلته يرتقي بالنسبة لهم. هكذا ارتقت الطبيعة البشرية في الحكمة متألِّهةً بواسطتها. لذلك أيضاً نحن بطريقة مماثلة للكلمة، الذي لأجلنا تأنَّس، نُدعى أبناء الله وآلهةً[١٧]. لقد تقدَّمت طبيعتنا في الحكمة منتقلةً من الفساد إلى عدم الفساد[١٨]، ومن الطبيعة البشرية إلى الإلوهية[١٩] بنعمة المسيح»[٢٠] (الكنوز ٢٨: ١١).

لقد أخذ القديس كيرلس صورة القدرة الثنائية (التبادلية) والجسد الذي يحيه الروح (النفس داخل الجسد) كمثال للكيفية التي أدرك بها اتحاد الله والإنسان في المسيح. إن اللاهوت يعيش بدون قيد في الهيئة

أو تغيير. ومن هنا فإن الطبيعة البشرية قد نالت من إتحادها بالطبيعة الإلهية كل ما يخص الكلمة بكونه إلهاً فهو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له.

١٧ نحن نأخذ هذه العطية بحسب النعمة.

١٨ ما كان لنا أن نتخلص من الفساد لو كان الابن ليس مساوياً للآب في الجوهر وليس هو وجه الآب أو صورة الآب، وهذا ما أكده القديس كيرلس حين قال: "فالابنُ، وهو وجه الله الآب الذي ظهر لنا، ولا يمكن أنْ يكون لدينا أي تردد تجاه هذه الحقيقة؛ لأنه هو ختمه ورسم جوهره، وبواسطته وفيه نحصل على معرفة الآب. وبهذه المعرفة يأتي إلينا، لذا يجب أنْ نكون رُحماء؛ لأننا خلصنا بالإيمان وليس من أعمالٍ البر التي نفعلها، لكن بسبب رحمته العظيمة (انظر تي ٣: ٥) ألقينا عن كاهلنا الفساد وأخذنا شكلاً جديداً مناسباً لحياة المسيح الجديدة، بسبب رحمة الله". السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السادس، المقالة الحادية عشر ص ١٢٩ ـ ١٣٠. أيضاً القديس كيرلس يشرح حقيقة تجسد الابن لكي يخلص الإنسان في موضع آخر، قائلاً: "لم يشأ أن يرى هلاك خليقته على الأرض، أعني الإنسان، بل على العكس، فلأجل أنه رأى أن الطبيعة البشرية قد أصيبت بمرض عُضال، فقد أرسل **كلمته** الذي يستطيع وحده أن يحطم مملكة الشيطان ويحررنا من الشرور التي أمسكتنا في قبضتها» الرسالة الفصحية الأولى، ترجمة د. ميشيل بديع عبد الملك مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مايو ٢٠٠٤، فقرة ٦ ص ٢٨.

١٩ طبعاً، التأله ـ كما قلنا سابقاً – بالنسبة لنا نحن البشر لا يعني بأية حال تغير طبيعة الإنسان البشرية إلى الطبيعة الإلهية، بل اكتساب الطبيعة البشرية للنعم الإلهية إذ صِرنا كما قال الرسول بطرس "شركاء الطبيعة الإلهية" (٢ بط ١: ٤) بفضل التجسد، وهذا واضح من سياق النص؛ لأن القديس كيرلس يؤكد أن ذلك تم بنعمة المسيح.

٢٠ القديس كيرلس الإسكندري، الكنوز في الثالوث، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠١١م، مقالة ٢٨: ١١، ص٣٩٦.

المتجسدة. فإن اللوغوس رغم ذلك يعيش أو يحيا بالاختيار داخل الجسد المادي البشري وفي أحوال الحياة المتجسدة أن الكيفيتين اللتان أخذتهما الحياة تشبهان التصاق النفس بالجسد في كيان بشري عادي.

وفي حالة الشخص العادي، فإن الطبيعيتين المختلفتين لكل من الكيانين لا يعوّق ولا يحد من اتحادهما، ولا يتطلب أن يختزل الكيانان الواحد إلى الآخر، بل على العكس من ذلك، يتكامل كلاهما معاً بينما ينعمان في نفس الوقت باتحاد متكامل يسمح بأحوال جديدة وإمكانات جديدة للوجود وازدهاره. ومن عمق حقيقة اتحاد الجسد بالنفس يشير القديس كيرلس إلى كيفية نشوء الكائن البشري. وفي فكر القديس كيرلس فإن اللاهوت الكامل للكلمة يتحد بالوجود البشري الكامل ومن حميمة ذلك الاتحاد الروحي والمادي، يكون المسيح الواحد والوحيد. يقول القديس كيرلس في رسالته الثالثة إلى نسطور: [وإذ نعترف بكل تأكيد أن الكلمة اتحد بالجسد أقنوميًا، فإننا نسجد لابن واحد الرب يسوع المسيح. نحن لا نجزّئ ولا نفصل الإنسان عن الله، ولا نقول إنهما متحدان الواحد بالآخر بواسطة الكرامة والسلطة، لأن هذا هراء وليس أكثر. ولا نُسَمي كلمة الله مسيحًا على حده، وبالمثل لا نُسَمي المولود من امرأة مسيحًا آخر على حدة، بل نعترف بمسيح واحد فقط، الكلمة من الله الآب، مع جسده الخاص. لأنه حينئذ إنسانيًا قد مُسِح بيننا رغم أنه يعطى الروح للذين يستحقون أن ينالوه، وليس بكيل، كما يقول البشير المغبوط يوحنا[٢١]. ولسنا نقول إن كلمة الله حل في ذلك المولود من العذراء القديسة، كما في إنسان عادى، لكى لا يُفهم أن المسيح هو «إنسان يحمل الله». لأنه

---

٢١ أنظر يو ٣:٣٤

حتى إن كان «الكلمة حل بيننا»[٢٢] فإنه أيضًا قد قيل إن في المسيح «يحل كل ملء اللاهوت جسديًا»[٢٣]. لذلك إذن نحن ندرك أنه إذ صار جسدًا فلا يقال عن حلوله إنه مثل الحلول في القديسين، ولا نحدد الحلول فيه أنه يتساوى وبنفس الطريقة كالحلول في القديسين. ولكن الكلمة إذ اتحد « حسب الطبيعة» (κατά φύσιν) ولم يتغير إلى جسد، فإنه حقق حلولاً مثلما يقال عن حلول نفس الإنسان في جسدها الخاص][٢٤].

وقد شعر القديس كيرلس بأن صورة الجسد والنفس كانت أفضل محاولة يمكن له أن يصورها بصياغة كيان سري لا ينفصم للعلاقة الإلهية البشرية داخل المسيح[٢٥]، وهو الكيان الذي يراه القديس كيرلس فعلاً شخصياً فريداً لله. وهو يقدم صوراً أخرى داعمة للعلاقة في شكل زهرة السوسن في عطرها، والنار في بطن قطعة الحجر (الفحم) والجوهرة في بريقها. كان القديس كيرلس يبحث عن مفهوم لتفسير طبيعي يتحد فيه الكيانان (مثلاً اللاهوت والناسوت) بشكل متكامل راسخ، لكن ليس له مثيل في أي ارتباط أو علاقة موازية، بل بالحرى يعطينا تفسيراً ديناميأ فيه تبادلية تكون من نتيجتها أحوال جديدة وإمكانات جديدة بفضل ذلك الاتحاد الحميم. ذلك كان سبب

---

٢٢ أنظر يو ١:١٤

٢٣ كو ٢:٩

٢٤ القديس كيرلس الإسكندري، الرسالة الثالثة إلى نسطور فقرة ٩ ترجمة المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

٢٥ يقول القديس كيرلس الإسكندري، الرسالة الثالثة إلى نسطور، ترجمة المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، فقرة ١٣: "وأيضًا نحن لا ننسب أقوال مخلصنا في الأناجيل إلى أقنومين أو إلى شخصين منفصلين، لأن المسيح الواحد لا يكون اثنين، حتى لو أدرك أنه من اثنين ومن كيانين مختلفين اجتمعا إلى وحدة غير منقسمة، وكما هو طبيعى في حالة الإنسان الذى يُدرَك على أنه من نفس وجسد ولكنه ليس اثنين بل بالحرى واحد من اثنين. ولكن لأننا نفكر بطريقة صحيحة فإننا نعتقد أن الأقوال التى قالها كإنسان أو تلك التى قالها كإله هى صادرة من واحد".

لهفته في الإصرار على أن كلمة الله، اللاهوت في ملء كماله قد اتحد بوجود بشري. إن الكلمة لم يتحد بإنسان بل بالإنسانية. وما

يعنيه هذا الاتحاد أنه أراد أن يتجنب أي مفهوم أن هناك كائناً بشرياً (يسوع ذلك المعلم اليهودي من الناصرة) موجود مع اللاهوت (الكلمة اللوغوس). أو أي اقتراح بأن إنساناً ما أمسك به الروح القدس روح الله. لكن ما الذي يعنيه بالقول أن الكلمة اتحدَّ بالبشرية؟ إن هذا ليس مفهوماً بالكامل يعجز عن التعبير عن سر لاهوتي بشكل شخص هكذا؟

ففي فكر القديس كيرلس ليس هناك من انتقاد يلي ما يقوله: فقد اعتبر البشرية (الناسوت) وسيلة كيان ووجود، طريقة تعبير عن الكيان أو الهوية في ومن خلال الظروف المادية للحياة بالجسد. وهو لم يعِّرف البشرية ككيان شخصي هكذا في ذاته. وبعبارة أخرى فقد ميزَّ الشخصية من جهة الحالة التي تنشأ فيها تلك الشخصية، ومن الطريقة التي يتم بها التعبير عنها، وإذا حاولنا مناقشة الأمر، وقلنا أنه حتى الكائنات البشرية العادية لا يمكن اختزال كياناتها الروحية إلى مجرد تلك الحالة الجسدية، فكم بالحرى (بل وأكثر من ذلك) بالنسبة لكلمة الله المتجسد، أن شخصه كان إلهياً ولا يمكن اختزاله إلى حياة جسدية، ومع ذلك فقد اختار أن يعبر هذا الكيان الإلهي عن نفسه خلال هذه الوسيلة الجسدية. ونتيجة لذلك، فإنه حتى الحياة الجسدية قد أصبحت وعاءً مباشراً لإستعلان الحياة الإلهية.

وقد عرف القديس كيرلس أن مركز تلك الرؤيا يطرح سؤالاً عظيماً وخطيراً على فِهمه للاتحاد الشخصي للمسيح. فإن هو رفض كل طرح نسطور باعتباره يقسِّم وحدة المسيح الشخصية أيضاً (فقد

اتهمها بأنها تقترح حتماً "ابنين" أو إنساناً هو يسوع مع اللوغوس الإلهي). إذن كيف يحسب هو نفسه حسابه لشخصية المسيح الداخلية؟

تلك كانت اللفظة الاستدلالية (المفتاح) لكل كتاباته بعد ٤٢٨م وهي فكرة مهيمنة وسائدة داخل كتابه: "المسيح واحد"، يشكل الفكرة الأساسية والمركزية فيه، كصميم العنوان الخاص بالعمل "في وحدة المسيح - عن المسيح الواحد" ولم تكن مهمته بالمهمة السهلة. إن التقليد السابق كان قد اقترح طرقاً من المداخل لكنها لم تكن واضحة. أيضاً، فإن جيل كيرلس قد بلغ نقطة تقاطع الطرق بين لاهوتيين متعاونين تماماً، ثبت كلاهما أنه غير مقبول لدى الإجماع الأرثوذكسي. فالتعليم الأنطاكي عن الإبنين والتعليم الأبوليناريوسي القائل بالاتحاد الذاتي للمسيح بتعليمه أن الكلمة هل محل العقل البشري أو الوعي الإنساني في المسيح، لأن الأعلى يحل محل الأدنى، وهذا الوضع الأخير تم رفضه تماماً وبحق كتقدير بائس للتجسد سرعان ما تحول إلى تدمير للبشرية وليس اتحاد بها.

وعرف القديس كيرلس أن هذه المهمة تقع في اتجاه مختلف عن كلا الطرفين وكان عليه أن يعول على تكاملية الألوهية والناسوتية. وهو يعرض لشركتهما المتكاملة، والنتائج المترتبة عليها، وقد استقر على اللفظ المفتاح "وحدة أو اتحاد" فمن اللاهوت والناسوت تم اتحاد ما، وليس تداخل ما، أو تعايش ما، أو علاقة ما، أو إحلال ما، أو ارتباط ما. ليس أي من هذه الأشياء التي افترضها مقاوموه فهو يجادل في أمر الاتحاد بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ومع هذا فهو اتحاد من النوع الذي لا يدمر عناصر تكوينه. لقد كان اتحاداً بكيفية اتحاد النفس بالجسد في البشر، وهو اتحاد تنتج عنه أحوال

جديدة وإمكانات جديدة لكلا المكونين بينما يحافظ على عناصرهما الأساسية دون أي مساس، وليس مثلاً بطريقة اتحاد الرمل والسكر (وهو اتحاد لا يصنع شيئاً لأي من عناصره) أو كاتحاد النار بالخشب (وهو اتحاد يعمل فقط من خلال تحطيم أحدى عنصرية للعنصر الآخر ومن ثم يقضي على أسس هذا الاتحاد.

وفي حالة المسيح، فإن القديس كيرلس يتحدث عن هذا الاتحاد بين اللاهوت والناسوت بمثابة "اتحاد اقنومي" فإن شخص اللوغوس هو الشخص الوحيد في كل أحوال وجوده، إلهية كانت أم إنسانية[٢٦]. اللوغوس هو دونما شك الشخص الوحيد بل الأوحد لكل أعماله الذاتية كرب أبدي (الخلق، إلهام روحي للأنبياء القدامي، وهكذا). ولكن بعد التجسد كان نفس الشخص هو الشخص الأوحد الذي يوجد كل أعماله المنجزة داخل هذا الزمان وهذا المكان، وهي الأعمال المجسدة التي تشكل مضمون ومحتوى الحياة البشرية للمسيح في فلسطين. وعبارة «ذاتها أو نفسها» تتكرر كثيراً بين الحين والآخر في كتاباته كطريقة بلا حوار على هذا التعليم الخاص بالشخصانية المتفردة الوحيدة كحجر زاوية لكل الخريستولوجي (طبيعة المسيح). وما يدور حوله من جدل، والقديس كيرلس بدون شك يؤكد أن المسيح كان أيضًا إنساناً كاملاً بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

وفي فكر القديس كيرلس، فإن هناك فقط شخصاً واحداً، وكياناً (واحداً) وحيداً في المسيح، ذلك كان اللوغوس الإلهي. لكن المسيح لم يكن مجرد لوغوس الله، بل كان اللوغوس الذي اختار أن يدخل

---

٢٦ هكذا في يسوع المسيح، وحَّد هيبوستاسيس (أقنوم) الكلمة ـ الذي هو هيبوستاسيس أزلي ـ بنفسه ناسوتًا أصبح واقعًا كيانياً في اتحاده مع هيبوستاسيس الله الكلمة. وهيبوستاسيس يسوع المسيح الواحد ليس ببساطة هو هيبوستاسيس الله الكلمة، ولكنه هو هيبوستاسيس الله الكلمة في حالته المتجسدة.

بكامله في حياة إنسانية[٢٧]، وطالما كان اللوغوس يحيا حياة بشرية، مباشرة وشخصية داخل كل الحدود المادية، المفروضة عليه بشكل حياة (تحصر ماضيها داخل إطار حياته في التاريخ كإنسان)، لكن ليس داخل إطار حياته اللامحدودة خارج الزمان كإله. فإن المسيح كان في الحال إلهياً وإنسانياً بغير انفصال، ويعتبر القديس كيرلس هذا الأمر «في الحال» استمتاعاً متزامناً بشكلين من أشكال الحياة، ولا شكل منها يلغي وجود الآخر، بل يعضد كل منهما الآخر ويحفزه بالخبرة الحميمة التي يوفرها كل منهما للآخر وبعبارة أخرى فلا اللاهوت ولا الناسوت في المسيح قد تناقص بالجسد، بل كلاهما وبكل ما يتضمنه المعنى «تناميا» بالخبرة فالناسوت على مستوى الوجود والأخلاق، وهكذا اللاهوت على المستوى التدبيري. يقول القديس كيرلس: [المسيح واحد، وهو ابن ورب، ليس بمعنى أن لدينا إنسانًا حقق مجرد اتصال مع الله، كإله، بواسطة اتحاد كرامة أو سلطة. لأن المساواة في الكرامة لا توحد الطبائع، فإن بطرس ويوحنا يتساويان في الكرامة الواحد مع الآخر، فكل منهما رسول وتلميذ مقدس إلاّ أن الاثنين ليس واحدًا. كما أننا لا نرى أن طريقة الاتصال هى بحسب المجاورة لأن هذه لا تكفى لتحقيق الاتحاد الطبيعى، ولا بحسب مشاركة اعتبارية مثلما إننا نحن الذين نلتصق بالرب كما هو مكتوب

[٢٧] كان القديس كيرلس الإسكندري هو أول من شرح طريقة الاتحاد. هذا التعليم ساعد في حل موضوع طريقة اتحاد طبيعتي المسيح في شخص واحد، في شخص الله الكلمة، ومن جهةٍ أخرى فَسَرَ أفكار وإدراك عدد لا يُحصي من المؤمنين الذين كانوا قد تمردوا من صعوبة حل هذه المشكلة اللاهوتية والأنطولوجية. اتحاد الطبيعتين الأقنومي في شخص الله الكلمة جَعَل وجود المسيح الأنطولوجي طبيعي تمامًا، وجود مركب إلهي إنساني، بـ "أنا" واحدة و"ضمير واعي" واحد. فنحن - كما رأينا - نؤمن بمسيح واحد قبل وبعد التجسد. يؤكد القديس كيرلس على هذه الحقيقة، قائلاً: " نحن لا نعزل العنصر البشري عن العنصر الإلهي، ولا نُجرِّدُ الكلمة من البشري بعد اتحادهما الذي لا يوصف، لكن نعترف بابن واحد، الذي من طبيعتين - بطريقة سرية - ظهر في شخص واحد باتحاد سام بدون تحول لطبيعته" القديس كيرلس الأسكندري، حوار عن تأنس الابن الوحيد وعن إن المسيحً واحد ورب بحسب الكتب المقدسة، ترجمة د. جورج عوض اغسطس٢٠١٢م، ص١١٧.

فنحن روح واحد معه[٢٨] بل بالحرى نحن نرفض تعبير «الاتصال» لأنه لا يُعّبر تعبيرًا كافيًا عن الاتحاد. ونحن لا نقول عن الكلمة الذى من الله الآب إنه إله المسيح وربه، حتى لا نجزئ أيضًا المسيح الواحد والابن والرب إلى اثنين، ولكى لا نسقط في جريمة التجديف بأن نجعله هو إلهه وربه. وكما قلنا سابقًا، فإن كلمة الله قد اتحد بالجسد «أقنوميًا» (κατά ὑποστασὶν)، فهو إله الكل ورب الجميع، وليس هو عبد لنفسه ولا سيد لنفسه. وأن يعتقد أحد بهذا ويقوله فهذا أمر غير معقول كما أنه بالأحرى أمر عديم التقوى. لأنه قال إن الله أباه، رغم أنه هو إله بالطبيعة ومن جوهر أبيه. ونحن لم نجهل أنه مع بقائه إلهًا فإنه قد صار إنسانًا أيضًا خاضعًا لله حسب القانون الواجب لطبيعة الإنسان. لكن كيف يمكنه هو أن يصير إلهًا أو سيدًا لنفسه ؟ وطالما أن الأمر يختص بما هو لائق بحدود إخلائه لنفسه، فإنه هو نفسه خاضع لله مثلنا. وهكذا فهو أيضًا "ولد تحت الناموس "[٢٩]، ورغم أنه تكلم بالناموس وهو معطى الناموس كإله][٣٠].

أما منتقدوه، وقد أرادوا تعميق ما يعنيه هذا التحفيز والتنامي، وهو «التحفيز» على نسق أبوليناريوس لم يعتبر مقبولاً على الإطلاق، وكان جدل القديس كيرلس أن ذلك كان بعيداً كل البعد من مجرد طريقة استشفاف منافع الحضور الإلهي الموهوبة للطبيعة البشرية ليسوع وقد رسم بدلاً من ذلك صورة لبشرية يسوع التي كانت مغمورة بالنور الإلهي والنعمة. إنه تأليه لجسد المسيح والذي جعله وبشكل فريد قوياً وواهباً للصحة، حتى وهو لا يزال جسداً بشرياً في جوهره.

---

٢٨ اكو ٦:١٧

٢٩ غلا ٤:٤

٣٠ القديس كيرلس الإسكندري، الرسالة الثالثة إلى نسطور، فقرة ١٠

وحقيقة أن لمسة المسيح تمنح الشفاء[٣١] قد شرحها القديس كيرلس على أساس أن أصبعه كان الأصبع البشري لكنه في آن إصبع الله، ومن ثم فالجسد البشري لم يكن أبداً بالجسد البشري العادي كسائر أجسادنا البشرية، بل هو بالحرى جسد الله الواهب الحياة[٣٢]. هكذا أعطانا القديس كيرلس صورة عن كيان بقي متكاملاً (أو كاملاً) لكن بغير تغيير على العكس فقط صار جسداً معززاً قوياً. ورد على الذين يزعمون أن هذا "التغير" قد دمر أو أباد الحالة الإنسانية الجوهرية، يرد عليهم القديس كيرلس قائلاً بالعكس إن ذلك قد حقق الحالة البشرية الجوهرية، التي لم يكن قدرها أن تقاوم التجلي الإلهي، بل أن تتكامل إلى شركة متعمقة إلى الأبد مع نعمة الله التي تمجد وتمنح الإنسانية تجليها. وفي فكر القديس كيرلس فإن التجسد كان "عملية" أساسية لمثل هذا التجلي أو التحول.

فإن كان هذا يشرح كيف للاهوت أن يعزز الناسوت. فكيف يمكن أن يقال أن الناسوت يمكنه أن يعزز اللاهوت؟ لقد اتهم نسطور كيرلس بصفة خاصة حول هذه النقطة بالذات، محاجاً أن طريقته في التفكير يمكنها فقط أن تؤدي إلى اختزال حالة وقدرة اللاهوت. وحول هذا الاتهام طوَّر القديس كيرلس ما كان يقصده بعبارة "تدبير الخلاص". بحسب القديس كيرلس، اللاهوت في ذاته لا يمكن أن

---

[٣١] يقول القديس كيرلس الإسكندري في شرحه لإنجيل لوقا الأصحاح الثامن: " أمسك بيد الفتاة وقال، يا صبية قومي، فقامت في الحال.. يا لقوة هذه الكلمة، وقدرة الأوامر التي لا يستطيع شيىء ان يقاومها! ويا لهذه اللمسة المعطية للحياة، من يده،، تلك اللمسة التي تبيد الموت، والفساد! هذه هي ثمار الإيمان، الذي لأجله أعطى الناموس أيضًا للقدماء بواسطة موسى « تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص ٢١٨.

[٣٢] أنظر الحرم الحادي عشر للقديس كيرلس: "من لا يعترف أن جسد الرب هو معطي الحياة وهو يخص الكلمة من الله الآب، بل يقول أنه جسد لواحد آخر غيره، وأنه مرتبط به بحسب الكرامة، أي حصل فقط علي حلول إلهي، ولا يعترف بالحرى أن جسده معطي الحياة كما قلنا لأنه صار جسد الكلمة الخاص به، الذي يستطيع أن يهب الحياة لكل الأشياء، فليكن محروما ".

يتغير، لأنه مطلق وكامل، لكن هذا لا يعني أن اللاهوت لا يمكنه أن يعمل بشكل آخر مختلف. وإلا ما كانت هناك علاقة بين الله وخليقته. فقد عمل الله خلال الزمان أو في الزمان والمكان، ليس لأن تلك كانت طريقته في العمل، بل لأن تلك كانت طريقة خليقته، ولأجل محبته للبشر وللعالم الذي كان الله يهيأه لإنجاز المستحيل. فالواحد الذي هو فوق الزمان سوف يدخل التاريخ أو يتعامل مع التاريخ. وفي فكر القديس كيرلس، إذا أنكر المرء ذلك، لأنكر كل مصداقية الإله الخالق الذي نفذ عهده مع الجنس البشري داخل التاريخ. وفي حالة التجسد، فإن نفس المضادة الظاهرية تشهدها مرة أخرى، وإن بشكل أكثر فرادة وحميمة فالتجسد، كما رآه القديس كيرلس كان فعلاً من أفعال القدرة الكلية لله، التي فيها اختار الرب الأبدي مباشرة وشخصياً أن يختبر أحوال حياة تاريخية ومادية. فإن كانت تلك الحياة مجرد خدعة كما يقول القديس كيرلس: "هم يفصلون الابنين ويعطون الاثنين اسم مزيف. ويمكن للمرء أن يقول لو صح قولهم فإن سر المسيح هو خدعة كبيرة. أين إذن الاتحاد، ولأي سبب يقولون أنه صار جسداً؟ أليست مسألة أن الكلمة صار جسداً لا تبدو حقيقية وأن الأمر هو ثرثرة ولغو، إن لم يكن الكلمة الذي آتي من الله الآب يمكن أن يدعى ابن داود، طالما وُلد بحسب الجسد من نسله؟"، وأنه ـ بحسب زعمهم هذا ـ لم يختبر حقيقة هذه المحدودية والشك والألم وكل ما يعصف بالحياة البشرية ويفتك بها. فلماذا كان يشغل نفسه بالتجسد من أصلة؟ والإجابة عند القديس كيرلس ليست بعيدة فلقد اختار الرب أن ينخرط شخصياً في كل مجالات الخبرة البشرية لكي يؤسس معانٍ جديدة لتجلي هذه الحالة خاصة مثلما يقول القديس كيرلس الألم والموت البشريين. لقد أراد الابن أن يحرر الطبيعة البشرية من أوجاعها لذلك

اجتاز - بكونه إنساناً - كل الآلام التي تجتازها هذه الطبيعة، وهذا ما سبق إن ذكره القديس كيرلس في موضع آخر، إذ يقول: "كما أن إبادة الموت لم تتم بطريقة أخرى غير موت المخلّص، هكذا أيضاً من جهة كل ألم من آلام الجسد: فلو لم يشعر بالخوف، لما أمكن للطبيعة البشرية أن تتحرر من الخوف، ولو لم يكن قد اختبر الحزن، لما كان هناك تحرر من الحزن على الإطلاق؛ ولو لم يكن قد اضطرب وانزعج، لما وُجِدَ أي مهرب من هذه المشاعر. ومن جهة كل انفعال من الانفعالات التي تتعرض لها الطبيعة البشرية، فإنك ستجد المقابل لها بالضبط في المسيح. فانفعالات الجسد كانت تتحرك، لا لكي تكون لها السيطرة كما يحدث في حالتنا نحن، بل لكي حينما تتحرك، فإنها يتم إخضاعها كلية بقوة الكلمة الساكن في الجسد، وهكذا فإن طبيعة الإنسان تجتاز تغيُّرا نحو الأفضل"[٣٣].

واستخدم القديس كيرلس عبارة دائماً ما كان يرددها والتي شَّهر بها مقاوموه مفسرين إياها بأنها دليل على أن القديس كيرلس لم يكن جاداً في تناوله مسألة خبرة المسيح البشرية. فهو يتحدث عن كيف أن المسيح «غير المتألم تألم، تألم بغير ألم، إذ يقول القديس كيرلس: [ونحن نعترف أنه هو الابن المولود من الله الآب، والإله الوحيد، ورغم أنه غير قابل للتألم بحسب طبيعته الخاصة، فقد تألم بجسده الخاص من أجلنا حسب الكتب. وهو غير القابل للتألم جعل آلام جسده خاصة له عندما صلب جسده، لأنه بنعمة الله ولأجل الجميع ذاق الموت[٣٤]، بإخضاع جسده الخاص للموت رغم أنه

٣٣ القديس كيرلس الأسكندري، شرح إنجيل يوحنا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد وآخرون، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، المجلد الثاني، الإصحاح الثاني عشر، ص ٧٨.

٣٤ أنظر عب ٢:٩

حسب الطبيعة هو الحياة وهو نفسه القيامة[٣٥]. لكي بواسطة قوته التى تفوق الوصف إذ قد داس الموت أولاً في جسده الخاص صار «البكر من الأموات»[٣٦] و «باكورة أولئك الذين رقدوا»[٣٧]، ولكى يعد الطريق إلى قيامة عدم الفساد أمام طبيعة الإنسان، وبنعمة الله، كما سبق أن قلنا حالاً، ذاق الموت لأجل الجميع، ولكنه قام في اليوم الثالث بعد أن سلب الجحيم حتى إن كان يمكن أن يقال عن قيامة الأموات إنها صارت بواسطة إنسان[٣٨]، فلا نزال نعنى أن هذا الإنسان هو الكلمة المولود من الله، وأن سلطان الموت قد انحل بواسطته، وهو سيأتى في الوقت المناسب كالابن الواحد والرب في مجد الآب ليدين المسكونة بالعدل كما هو مكتوب[٣٩]][٤٠].

إن الشئ الآسر في الشعار الذي كان نموذجياً في أسلوب القديس كيرلس الدفاعي ومثلما هو الحال مع عبارات أخرى أخاذة أنه اختار ألفاظاً كانت تصدم قُراءه وتظهر الخطوط العريضة لفكره بينما يناقض بشكل مسطح المنطقيات الرئيسية لمعارضيه. إن القديس كيرلس ليس من إتباع الهرطقة الخيالية «الدوسيطية» الذين ينكرون حقيقة آلام المسيح. على العكس، فإنه يشير إلى الخبرة كلها الخاصة بالتجسد بأنها أضافت ملمحاً فريداً إلى اللاهوت هي الخبرة الشخصية للألم والموت البشري. وهذه الإضافة إلى اللاهوت

---

٣٥ أنظر أع ٤:٢

٣٦ كو ١٨:١

٣٧ أنظر ١كو ٢٠:١٥

٣٨ يو ٢٥:١١

٣٩ أنظر أع ٣١:١٧، مز ٩:٩٨

٤٠ القديس كيرلس الإسكندري، رسائل القديس كيرلس إلى نسطور، الرسالة الثالثة، رقم ١٧، ترجمة المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

مستحيلة أن اعتبرناها بمفاهيم الطبيعتين: الطبيعة الإلهية التي لا يمكن أن يضاف إليها أو يُطرح منها بمفاهيم جوهرها، لكن ذلك ممكن كما يقول القديس كيرلس بمفاهيم الخبرة الشخصية لهيئة حياة ما. وفي التجسد، يرى القديس كيرلس الله الأبدي يختبر مباشرة الألم والموت، طالما أنه ومثل أي إنسان آخر أيضاً قد جاء تحت معايير أو شروط هيئة الحياة البشرية.

ويرى القديس كيرلس هذا الجزء من تدبير التجسد كمفتاح الفداء. لأنه وعلى الرغم من أن الله يختبر الألم والموت، مثلما يختبر كل العوامل البشرية الأخرى، فإنه لا يصبح تحت سيطرة الألم أو الموت. نفس الأمر مع لاهوته مثلما هو في ناسوته. إن أحوال طبيعة منهما لا تزيل أو تمسح الحقائق المميزة للأخرى، حتى رغم ما بينهما من خبرة ديناميه متبادلة وفي حالة من السريان. حين يتساءل القديس كيرلس، كيف أن الله جعل يسوع رباً ومسيحاً؟ يجيب هو نفسه شارحاً لنا حركة الإخلاء، فالكلمة بينما هو إله ورب أخلى ذاته بتأنسه إذ أخذ شكل العبد ومُسح؛ لأن هذا الأمر يتناسب مع الإنسان، ورُفِعَ إلى مكانه عظيمة كإنسان. وعند هذا الحد يشرح القديس كيرلس تبادل الخواص في شخص المسيح الواحد، إذ يقول: «لأن كلمة الله لم يأت ليطمس طبيعة الله الحرة تحت شكل العبد، ولا لكي يترك ما هو موجود ومحدد في خصائص الطبيعة البشرية، بل لكي يرفع هذا الذي كان مستعبداً إلى مكانة الرب الشرفية، ويُحضر ثانيةً هذا الذي كان مهاناً إلى كرامته. لأننا كيف نُدعى أخوة المسيح، وكيف صرتم أبناءً، لو لم يكن المسيح قد أفادنا بتأنُّسِهِ؟»[٤١] (الكنوز ٢١: ١٨).

---

[٤١] القديس كيرلس الأسكندري، الكنوز في الثالوث، مرجع سابق، مقالة ١٨:٢١، ص ٣٣٥-٣٣٦.

ويؤكد القديس كيرلس على هذه الجزئية مع حركة حاسمة في لغته فيما أصطلح على تسميته بتعليم «تبادل الخصائص» أو «تواصل الخواص» وقد ناقش القديس كيرلس الأمر بصدق، قائلاً إنه على أساس هذه المبادلة الشخصية المباشرة للخبرة والمؤسسة على الشخص الإلهي الوحيد اللوغوس الكلمة الذي تمتع أو عاش كلا الحالتين أو هيئتي الحياة، كان من المسموح أن يعزي الخبرات لكلا الطبيعيتين لنفس الشخص الوحيد دائماً مدركاً أن لغة أحدهما إنما تشير إلى حالة التجسد. هكذا يؤكد القديس كيرلس في جزئيته وبأسلوبه اللغوي المعتاد والذي يتسم بالبلاغة التصويرية واستخدامه المضادات الظاهرية: مات الله، جلس الله في حِجر العذراء ورضع من ثديها أما بالنسبة لمعارضيه، وخاصة نسطور، فإن هذه اللغة قد حطمت أسس خطتهم الخريستولوجية، وقد هاجموها بشراسة باعتبارها لغة ميثولوجية (أسطورية) وبالنسبة للقديس كيرلس كان ذلك هو الحق الوحيد أن اللوغوس الإلهي كان الشخص الوحيد وحده الذي يختبر كل أعمال التجسد، وهو الحق الذي خَلَصَ تعليم أو عقيدة التجسد من الأسطورة، وفي نفس الوقت شرح لماذا كان التجسد ضرورياً، وقبل التجسد فإن الله غير المائت لا يمكنه أبداً أن يموت، بأي مفهوم للكلمة والآن، وفي أحوال التجسد، من الحق تماماً القول إن الله بإرادته مات، وحال كونه الله قد حطم وكسر قيود الموت بنفس الفعل ذاته الذي كان خاضعاً به للموت.

وهذا التدبير الخلاصي للفداء الخاص بالتبادل والتجلي، عند القديس كيرلس يدعى "نظرية التخصيص" وهي بمفهوم ما صميم وقلب تعليمه الخريستولوجي. وعندما كان يصر، مثلما كان يفعل المرة تلو المرة، بالتأكيد على منطقية عبارات مثل "موت الله" أو

”والدة الإله“ فإن هذه الصياغة اللاهوتية الأوسع كانت من ابتكاره هو ولهذا السبب، ومثلما قيل دائماً، فإن الدفاع المستميت لكيرلس عن لقب ثيؤطوكوس (أم الله) كان قلب العبارة الخريستولوجية والخلاصية أكثر منها عبارة حول (علم المريميات) في حد ذاته[٤٢]. وبمعزل عن استخدام هذا الشكل من لغة «تبادل الخصائص» فإن كيرلس كان يطبق أيضاً عبارة مفضلة لديه «الطبيعة الواحدة المتجسدة لله الكلمة» ليوجز بها ويدلل على العنصر المعمول به في صميم وقلب التجسد. ومثل بقية ألفاظه، كان يصمم عباراته ومصطلحاته عن عمد كأنه يقصد أن يصدم معارضيه. وقد اقترح بعض النقاد أن هذه الطريقة التي كان القديس كيرلس يلجأ إليها مستخدماً مثل هذه الألوان الصاخبة في لوحته الدفاعية كانت تجعل الجدل أكثر توهجاً مما يحتاجه أن يكون. وكان رأى القديس كيرلس أن مثل تلك الألفاظ القوية هي القادرة على إجبار معارضيه على الخروج من تلك الضبابية اللاهوتية المغلفة لفكرهم والتي تغطي وتطمس منطقهم غير المقبول أساساً. إن معارضيه من معاصريه، مثل نسطور، وثيودوريت أسقف قورش، وآخرين في الإيبارشية الأنطاكية، كانوا يقرءون عباراته هكذا ببساطة كأمثلة للهرطقة الأبوليناريوسية المتطرفة. وهم كانوا في ذلك على خطأ فهناك أسس وأصول للتفكير. لكن من المؤكد أن القديس كيرلس كان عنيداً لأجل الحق في معارضته لكل ما ذهب إليه نسطور. وليست

٤٢ يقول القديس كيرلس: ”على أيَّةِ حال، بالطبع هي والدة الإله، وهي العذراء الحسنة حتى ولو لم يُرد هؤلاء. لأنه لو كان يسوع المسيح الذي أتي منها، هو إنسان فقط، فكيف كتب بولس في رسالَته إلى أهل غلاطية، قائلاً: ” بُولُسُ، رَسُولٌ لاَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ بِإِنْسَانٍ، بَلْ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ“ (غلا ١:١)؟. من الواضح إذًا أنه ليس مجرَّد إنسان عادي، بل هو الله الذي صار إنساناً ” والدة الإله: ” ضد الذين لا يعترفون بأن العذراء القديسة هي والدة الإله“، ترجمة عن اليونانية د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، يونيو ٢٠١١م، فقرة ١٨ ص٢٥ .

هناك أسس رغم ذلك، للاعتقاد بأن كيرلس لم يفهم لاهوت نسطور. لم يكن القديس كيرلس مستعداً للتوافق على الاختلاف المذهبي أو التعليمي مع نسطور، إذ يراه يقلب المسألة الأساسية لهوية يسوع الإله المتأنس وهذا لا يعني أنه كان مفكراً متصلب الرأي بحسب تعبير[٤٣] John Anthony.

عندما كان يقتنع أن المسألة الأساسية في أمان، كان على استعداد أن يقطع ميلاً آخراً زيادة ليقابل اللاهوتيين الأنطاك ويلتقي بوجهات نظرهم. كانت إرادته ورغبته في التوافق تتوفر إذا ما استقرت الحقائق الأساسية، الأمر الذي كان يكلفه بعض الشعبية في وطنه في سنواته الأخيرة.

[43] ST Cyril of Alexandria، On The Unity Of Christ، Translated and with an Introduction by John Anthony Mcguckin، st vladimir seminary press Crestwood، NY 10707 1995، pp.47

أسئلة الفصل الثاني

١- أشرح أهمية مكانة مدينة الإسكندرية ورئيس أساقفتها؟

٢- ما هو دور القديس ثأوفيلوس في تربية القديس كيرلس؟

٣- ما هي الظروف التي صاحبت إختيار القديس كيرلس بطريركًا؟

٤- ماذا تعرف عن شخصية نسطور؟

٥- هل خصومة القديس كيرلس لنسطور هي سياسة مع الشرح؟

٦- ما هي الإجراءات التي إتخذها نسطور لمواجهة القديس كيرلس؟

٧- إشرح علاقة البابا سيلستين والقديس كيرلس بخصوص مواجهة تعليم نسطور؟

٨- أذكر مع الشرح التعليم الخريستولوجي للقديس كيرلس؟

الفصل الثالث

القديس كيرلس الإسكندري كمفسر للكتاب المقدس

أعماله التفسيرية

يعتبر القديس كيرلس الأسكندرى (٣٧٠-٤٤٤م) من المفسرين العظماء للكتاب المقدس في تاريخ الكنيسة. إن العقيدة الخريستولوجية ضد (آريوس، نسطور، أبوليناريوس، افنوميوس) تمثل الأساس لفهم كل شروحاته وتفسيراته للكتاب، وهو يربط ربطًا محكمًا بين الشروحات وعقيدة الكنيسة.

بدون شك لا ينتمي القديس كيرلس إلى المتطرفين الغيورين للتفسير الرمزي وفى نفس الوقت لم يُوجد معاديًا للمدرسة الأنطاكية فلقد استخدم الرمزية (ἀλληγορική) مع النماذجية (النمطية) أو المثالية (Τυπολογική).

إسهامات القديس كيرلس كمفسر للكتاب المقدس:

أ - العهد القديم:

إن تفاسير القديس كيرلس للعهد القديم تعتبر من أقدم كتاباته، فقد كتب " العبادة بالروح والحق" فى صورة حوار بينه وبين بلاديوس، وهو شرح رمزى ونمطى، ويشمل الكتاب ١٧ فصلاً.

وموضوع الكتاب الرئيسى كيف أن الناموس قد أُلغى فقط بحسب

الحرف وليس بحسب الروح.

فى رأى القديس كيرلس : كل شئ يحويه العهد القديم هو صورة ورمز وظلال للعبادة بالروح والحق. فى الفصول الأولى ينشغل كيرلس بخطية آدم ويناقش مسألة تحرر الإنسانية من عبودية الخطية والشيطان ويؤكد أن التحرر لا يأتى إلاّ من المسيح ويستمر فى هذا الموضوع حتى الفصلين الرابع والخامس ليؤكد على أهمية الدور الإنسانى فى حفظ هذا الخلاص لذا يشدد على أهمية قرار وإصرار الإرادة الإنسانية فى أن تَخلص.

* وكتب أيضًا فى هذه الفترة (Τα Γλαφύρα) « تعليقات» من ثلاث عشر فصلاً وهو يُكمل ما كتبه سابقًا فى " العبادة بالروح والحق" ولكنه لم يكن فى صورة حوار، ما يخص سفر التكوين سبعة فصول، وثلاث فصول لسفر الخروج، وثلاث فصول كل واحد منها لسفر اللاويين، سفر العدد، سفر التثنية.

* أيضًا كتب فى هذه الفترة تفسيره لسفر إشعياء والذى شغل مجلدًا كاملاً (رقم ٧٠) فى سلسلة Migne، ومذكراته فى الأنبياء الصغار.

في هذه الكتابات اتبع القديس كيرلس التقليد الأسكندرى في التفسير، إذ ترك الحرف والتاريخ ودخل في قلب النص مفتشًا على الثمر الروحي اللازم للغذاء. لقد وضع القديس كيرلس أساس التفسير وهو التفتيش على " المعنى الروحي" وراء الحرف. لقد كان القديس كيرلس مُحِّق في تطبيقه هذه الطريقة في التفسير للعهد القديم لأن الناموس يعطى فقط صور ورموز للحقيقة، هو الظلال، لذلك قد أُلغيَّ، ولكن القديس كيرلس يشدّد على أن الإلغاء تم بحسب الحرف

وليس بحسب محتواه الروحي وأهميته الروحية، ومن هنا نرى أن الناموس ـ كما يعلن القديس كيرلس ـ حفظ فاعليته حتى اليوم ولكن بحسب مفهومه الروحي.

يرّكز القديس كيرلس في كتاباته على الصورة القديمة التي للكنيسة في قلب العهد القديم، كذلك في كتابه "جلافيرا أو تعليقات" يرّكز على أن "سر المسيح" رُمز إليه وصُور في كتب موسى الخمسة "التوراة".

* إن شروحات القديس كيرلس لأسفار الملوك، نشيد الإنشاد، والأنبياء حزقيال، إرميا، باروخ، دانيال قد بقى منها مقاطع صغيرة.

ب ـ العهد الجديد:

(١) تفسير إنجيل يوحنا :

كتب القديس كيرلس تفسيره لإنجيل يوحنا وذلك قبل فترة البدعة النسطورية، وهو يمثل ١٢ مجلدًا.

إن تفسير كيرلس له طبيعة عقيدية، والمقدمة تكشف على أنه يريد أن يُعطى مفاهيم عقيدية للنص وعلى محاربة الأفكار الهرطوقية .

يفحص القديس كيرلس في شروحاته هذه فكر الآريوسيين، فكر أتباع افنوميوس، وخريستولوجية المدرسة الأنطاكية. أيضًا في تفاسيره هذه لا يذكر لا نسطور ولا مصطلح والدة الإله، ومصطلحاته في هذا العمل ليست هي نفسها كما وُجدت في كتاباته بعد ظهور النسطورية. لذلك يوجد اتفاق بين المفسرين

بأنه كتبه قبل فترة البدعة النسطورية [٤٤]

(٢) تفسير إنجيل لوقا:

هو مجموعة عظات حول نصوص إنجيل لوقا، والهدف من هذه العظات ليس عقيدي فقط كما في تفسيره لإنجيل يوحنا ولكنه سلوكي عملي أيضًا.

بقيت فقط ثلاث عظات من النص اليوناني المفقود وبعض المقاطع الأخرى، بينما هناك ١٥٦ عظة وصلت إلينا باللغة السريانية (من القرن السادس) ومن خلال هذه الترجمة نعرف من العظة رقم ٦٣ أن وقت كتابة هذه العظات كان أواخر ٤٣٠ م لأنه يذكر حروماته الأثنى عشر.

(٣) مقاطع تفسيرية لأعمال أخرى للعهد الجديد:

مقاطع قليلة من شروحاته لإنجيل متى، وأسفار أخرى للعهد الجديد.

---

٤٤ [هذا رأى الأب جورج فلورفسكى في كتابه " آباء بيزنطة القرن الخامس " والصادر بترجمته اليونانية في تسالونيكى سنة ١٩٩٢م].

بحسب القديس كيرلس، الإيمان المستقيم هو أساس فِهم الكتاب المقدس

إن مفهوم الكلمة اللوغوس يُعلن فقط داخل خبرة الإيمان. الايمان - وليس مجرد البحث اللغوي والحرفي - هو الذي يقودنا خارج محدوديتنا كمخلوقات. الإيمان يجب أن يسبق البحث، والمعرفة الصحيحة يمكن أن تؤكد فقط على أساس الإيمان.

بدون استنارة الروح القدس، لا يستطيع أحد أن يُقبل لمعرفة الحق وأن ينجح فى الحصول على فهم دقيق سليم للعقائد الإلهية، لأن الآب لا يمنح معرفة المسيح لغير الأنقياء .

إن معرفة الله هي حوارية أي تتطلب حوار حقيقي مع الله وشركة قوية وليست كالمعرفة الخارجية. ويؤكد القديس كيرلس على أن معرفتنا اليوم ستظل ناقصة ولا تقارن بمعرفة الحياة العتيدة، فكما يختفي لمعان النجوم بظهور نور الشمس هكذا تختفي معرفتنا أمام كمال نور المجد الإلهي.

الملامح الأساسية للتفسير
عند القديس كيرلس

١ ــ الأساس الخريستولوجي.

٢ ــ الأساس الروحي.

٣ ــ الأساس الكنسي.

أولاً : الأساس الخريستولوجي للتفسير

يعتبر القديس كيرلس أن الإيمان الصحيح بسر التجسد هو ضرورة أساسية للتفسير، إذ أن الكلمة المتجسد هو القانون والمعيار الذي يُقاس عليه التفسير الصحيح (تفسير يوحنا ٩- P.G. 74، 189C).

فالأساس الخريستولوجي هو دعامة لكل شروحاته، وأيضًا صياغاته للعقيدة، فالمسيح ظل بعد التجسد هو الواحد ـ الله ـ الكلمة. وبالتجسد اتحد اللاهوت بالناسوت بغير اختلاط أو تغيير، وهذا الاتحاد في شخص المسيح ليس مجرد اعتراف نظري، بل هو حدث واقعي في تاريخ التدبير الإلهي وأساس التفسير الصحيح للكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة. لذلك ففي رأي القديس كيرلس، لكي نفهم ما قاله المسيح وأيضًا ندرك أفعاله المدونة في الأناجيل، لابد أن نراها في إطار الاتحاد الكامل بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح، فالكلمة المتجسد لم يكن ببساطة إنسان «حامل لله» θεοφόροφ مثلما اعتقد نسطور، ولكن العكس، فكل ما قاله وما فعله المسيح صادر من شخص الله الكلمة ويتعلق بإقرار الإيمان الصحيح عن الاتحاد الذي تم بين اللاهوت والناسوت والذي نتج عنه ما يُسمي

"بتبادل الخواص" فطبيعة الناسوت قبلت المجد الإلهي وذلك باتحادها بطبيعة اللاهوت". (عن التجسد P.G. 75، 1244، 1249).

فالإخلاء "أخلي ذاته": هو الذي جعل الكلمة داخل المعايير البشرية (تفسير يوحنا - P.G. 73، 132A).

ولكي نفهم أقوال وأعمال المسيح الإنسانية كما دُونت في الأناجيل، هناك حاجة أن نحافظ على الوحدة غير المنفصلة وغير المختلطة بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح، فلا يجب أن ننسب الأقوال والأعمال الإنسانية للمسيح للاهوت فقط ولا للناسوت فقط (تفسير لوقا P.G. 72، 509D)، بل لشخص المسيح الواحد، ويطبق هذا على المعجزات، التي هي أعمال إلهية، ولكنها تمت بواسطة الجسد (الناسوت) (الكنز ٢٣، P.G. 75، 388C).

لكن علينا ان نعرف ونميز متى تُنسب الأقوال اللاهوت ومتى تُنسب إلى الناسوت، دون أي انفصال بينهما. فمثلاً عندما يقول المسيح "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (يو١٤ :٨) أو (يو١٠ :٣) "أنا والآب واحد". واضح أن هذه الكلمات منسوبة إلى اللاهوت. أما قوله مثلاً في (يو٨ :٤٠) "ولكنكم تسعون إلى قتلي وأنا إنسان كلمتكم بالحق الذي سمعته من الله.." هنا الكلام منسوب إلى إنسانيته الكاملة (تفسير لوقا P.G. 72، 672C).

واللوغوس (كلمة الله) لو لم يصر إنسانًا كاملاً لِما كان لنا ان نراه يتكلم بشريًا. وبناء على ذلك مَنْ ينكر هذه الأقوال والأفعال الإنسانية للمسيح ينكر تدبير التجسد (الدفاع P.G. 76، 413CD).

فهذه الأقوال تُعلن عن حقيقة التأنس فلو لم يتكلم المسيح كإنسان كامل، لما آمن أحد بإخلاء الله الكلمة (رسالة١٧، P.G. 77 116BC).

وقد رفض القديس كيرلس قول نسطور بأن أعمال الجسد التي للمسيح تُنقص من شأن المجد الإلهي، فإن القديس كيرلس يرى أن بواسطتها نستطيع أن نعرف عظمة الجوهر الإلهي االسامي، وهكذا علو اللاهوت نعرفه من التواضع والإخلاء الإلهي (الكنز ٧، P.G. 75، 120AB).

إن هذا الاتحاد الأقنومي بين اللاهوت والناسوت، في رأي القديس كيرلس، كان هو الوسيلة الوحيدة لخلاص البشرية، وعلينا أن لا نقف عند الحرف مثلما فعل نسطور لكي يبرهن على سمو وتفوق الطبيعة الإلهية على الطبيعة الإنسانية للمسيح، وانتهي إلى أن المسيح كان إنسان حامل للإله فقط، وأنكر التجسد الحقيقي للكلمة. وبذلك فإن كل ما قام به المسيح إنسانيًا أي بالجسد ليس له بُعد خلاصي حقيقي لدى نسطور.

يُشدّد القديس كيرلس على أن الأقوال التي ينسبها البعض إلى طبيعة لاهوت المسيح أو إلى طبيعة ناسوته، يجب أن تُنسب لشخص المسيح الواحد، فالتمييز بينهما هو تمييز تدبيري ولا يتعلق بأي فصل بين الأثنين. (الكنز ٢٤ - P.G. 75، 429C).

ثانيًا : الأساس الروحي للتفسير

لقد كان القديس كيرلس كإسكندري أصيل هو تابع متحمس للتفسير الروحي للكتاب المقدس، وأيضًا في إطار الإيمان الخريستولوجي يشرح لنا التفسير الروحي، فكما أن ناسوت المسيح يؤكد ألوهيته، هكذا أيضًا الحرف أو التاريخ يُعلنان المعني الروحي الإلهي المقصود من الكلام المكتوب.

والتفسير الروحي، بحسب القديس كيرلس، يتخذ الحرف أو التاريخ أساسًا له إذ فيه يتعرف على سر المسيح "سر التدبير

الإلهي". فالتجسد يُعلن هدف "σκοπός" التدبير الإلهي ويتعرف عليه عندما ننظر إلى أقوال وأعمال المسيح المدونة في الكتاب المقدس وفق هذا التجسد "الإخلاء" (عن الإيمان المستقيم ٣٠، P.G. 76، 1373C).

لذلك، بحسب القديس كيرلس، يجب أن نعبر من الكلمة الكتابية والتي تصف الكلمة بطريقة بشرية أي وفق مقاييس بشرية، إلى الفهم الروحي الإلهي . إذن التفسير الروحي عند القديس كيرلس يستلزم التمييز الواضح وأيضًا الوحدة غير الممتزجة بين عالمين : المحسوس والمادي ؛ والروحي والذهني، كما تحقق هذا الاتحاد في شخص الواحد ربنا يسوع المسيح. وبناء على ذلك فتطبيق التفسير الروحي يُنظر إليه على أنه تجلي وتغير العنصر التاريخي والإنساني (الحرفي) إلى العنصر الإلهي والروحي والذي هو متحد معه بغير امتزاج ولا انفصال.

والآن نسرد بعض المبادئ الأساسية لفهم التفسير الروحي لكيرلس:

(١) يؤكد القديس كيرلس على أن الكتاب المقدس يتكلم عن الله بشريًا لأن الله لا يستطيع أن يتكلم أو يُعلن عن نفسه إلاّ بطريقة بشرية قريبة ومفهومة لدي الإنسان (تفسير المزامير - P.G. 69، 792). وهذه الطريقة لا تقلل من المجد والسمو الإلهي، ولكن على العكس، فإن عجز العقل البشري واللغة البشرية هما السبب الذي جعل الكتاب يتكلم بطريقة بشرية عن الله. وهكذا فالكلام عن الله يُحاكي ويتكيف بحسب الحاجة مع مقاييس الكلام البشري. ولكي نعرف سمو المجد الإلهي علينا أن نفهم الشواهد التاريخية والإنسانية عن الله المدونة في الكتاب المقدس وذلك بطريقة خاصة. إذ أن الإنسان موجود في كثافة

جسدية وتحكمه قوانين بيولوجية، ويجب عليه ألاّ ينحصر في الفهم البشري للكلمات " اللاهوتية " ولا يعيها بطريقة حرفية صارمة أو بطريقة تاريخية فقط ولكن وفق العنصر الإلهي.

ستظل الكلمة البشرية قاصرة وغير كافية لوصف الإلهيات، فتعبيرها دائمًا نسبي، فهي داخل حدود اللغز والنموذج والعلامة والمثال. وبواسطة الكلمة نستطيع أن نفهم جانبًا ما من العنصر الإلهي والروحي. فالكلمة الكتابية لا تعلن ماهية الله بالضبط، ولكن مفاهيم عن الله (ضد نسطور ١:٣ P.G. 76، 33C).

والذي حدد هذه المفاهيم ليست الكلمات اللغوية أو المفاهيم التاريخية في حد ذاتها، ولكن المعنى الروحي المختفي والعميق السري، وذلك بحسب التدبير، والذي يقودنا إلى الفهم الصحيح للأقوال الإنسانية (تفسير إشعياء٣:١، P.G. 70، 565C).

إذن التفسير الروحي للكتاب ليس هو قضية لغوية أدبية صارمة، تقتصر فقط على الفهم الحرفي أو التاريخي، ولكن هدف التفسير هو "المعرفة الإلهية " والتي تستلزم عدم بقاءنا في الحرف أو التاريخ، ولكن نمر من خلاله إلى الروح، فما يرمي إليه التفسير هو المعرفة الخلاصية لعمل التدبير الإلهي. لا يمكن أن نظل في الحرف أو الكلمة المكتوبة لأن الغرض منها هو الصعود الدائم نحو الأسمى، من المحسوس إلى الروحي. فالحرف يخدم سر التدبير الإلهي، والمحسوسات البشرية تتغير وتتجلى بفضل التجسد، نحو الحالة الإلهية في المسيح يسوع (تفسير متى، P.G. 75، 429C).

فبحسب القديس كيرلس الكلمة في الفلسفة اليونانية هي بلا جسد (ἄσαρκος) أما الكلمة الكتابية فهي متجسده ،فهي حاملة لقوة

سر الألوهية، فهي المثال والنموذج للروحيات، فترفع العقل من الماديات إلى الروحيات.

(٢) يشدد القديس كيرلس على عدم احتقار الحرف أو التاريخ، فلكي نصل إلى التفسير الروحي لابد أن نفهم أولاً الخاصية التاريخية واللغوية للنص، وعن طريق هذا الفهم يستطيع المفسر أن يتعرف على قوة الكلمة التي تقود إلى الرؤية الروحية. فالتفسير التاريخي والحرفي عند القديس كيرلس مهم لأنه :

أ - يعتبر الظل الذي يقود إلى عمق الروحيات (العبادة بالروح والحق٣، P.G. 68، 540B).

ب - يُؤّمن حقيقة المفاهيم الروحية الإلهية بعيدًا عن التأمل الروحي المريض، لأن التاريخيات أو الحروف هي نماذج وظلال للحقيقة.

ج - له هدف تربوي، وتعليمي، وأدبي لأن مختاري الله سواء في العهد القديم أو الجديد هم نماذج وقدوة للحياة المسيحية الحقيقية.

إذن الكلمة المكتوبة لها مفهومين : تاريخي وروحي، والذي يقودنا إلى التفسير الصحيح هو الإيمان لأن الإيمان يسبق المعرفة إذ بواسطة الإيمان يصل الإنسان إلى المعرفة الكاملة (شرح إنجيل يوحنا٤، ٤:٢، P.G. 73، 576D). والإيمان هنا هو المعرفة الصحيحة عن الله داخل حياة الفضيلة (شرح يوحنا١٢، P.G. 74، 756D). الإيمان بالاتحاد بين اللاهوت والناسوت بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير في شخص المسيح، أعاد الوحدة بين المحسوس والروحي، وأيضًا بين أنشطة الإنسان الجسدية والحياة الروحية. لكي نصل إلى المفهوم العميق والسري للكلمة الكتابية، هناك احتياج دائم لتطبيق الهدف العام، بمعنى أن نتعرف داخل شخصيات وأحداث

وروايات الكتاب على فعل التدبير الإلهي وبالتحديد سر المسيح. هذه الطريقة تمنع وجود أي مسافة فاصلة أو اختلاط بين العهدين القديم والجديد. فالعهد القديم والعهد الجديد بينهما علاقة لا تنقطع، والتقليد الإسكندري الذي ينتمي إليه القديس كيرلس يستند على تفسير (٢كو٣:٦) "الذي جعلنا كفاةً لأن نكون خدام عهد جديد. لا الحرف بل الروح. لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيى"، و(عب١٠:١) "لأن الناموس إذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء، لا يقدر أبدًا بنفس الذبائح كل سنة التي يقدمونها على الدوام أن يكمل الذين يتقدمون".

فالعهد القديم هو نص نبوي له شكل الظل والمثال والنموذج، فهو يتنبأ عن سر المسيح، وهذا يسري على أسفار موسى الخمسة وأيضًا على كل الكتب النبوية. (العبادة والروح والحق٦، P.G. 68، 440A)،(تفسير إشعياء٢:٥، P.G. 70، 545D).

العهد القديم هو ظل للعهد الجديد، ولكن في حالة فهمه بالتفسير الروحي، لأن طبيعة الكلمة الكتابية هي لغز وظل ومثال .. وبدون اللجوء للمحتوى الذي يُعلن بواسطة الكلمة تظل بلا فائدة (شرح يوحنا٥:٤، P.G. 73، 661).

عند القديس كيرلس هناك ثلاث أسباب تجعلنا نتمسك بالعهد القديم:

١ـ بالعهد القديم نرى أن سر المسيح ليس شيئًا جديدًا ولا مستحدثًا، بل هو موجود من البداية وقد عُبّر عنه في شكل ظلال في الأحداث والأعمال التعبدية وأيضًا الأعياد في العهد القديم (تعليقات على سفر الخروج: P.G. 69، 424B. على سفر ملاخي: P.G. 72، 364C).

٢ ـ كان المسيح حاضرًا في أحداث وشخصيات العهد القديم ولكن

أيضًا بالظل والمثال، وذلك بسبب ضعف السامعين (تفسير لوقا، P.G. 72، 901C).

٣ ـ حضور المسيح في العهد القديم يُبرهن على أن الكتب المقدسة أوحيت بنور روح المسيح (العبادة بالروح والحق٥:٤، P.G. 68، 1313D).

وهكذا يُشدّد القديس كيرلس على أن نقبل العهد القديم لا بالمفهوم الحرفي بل بالمفهوم الروحي.

ثالثًا : الأساس الكنسي للتفسير الكتابي

إن الأسرار الإلهية تنتمي للعالم الروحي، بينما الإنسان محدود وإدراكه ضعيف مما يعوق المعاينة الكاملة للمجد الإلهي، ولذلك فأي مفسر يحتاج إلى أساسيات تتعلق بالإيمان والحياة الكنسية، وعلى هذا الأساس يلجأ دائمًا القديس كيرلس إلى التعاليم والخبرة الكنسية ويعتبر التقليد الكنسي هو المرشد الضروري للتفسير الكتابي، والأساسيات الكنسية في نظر القديس كيرلس هي :

١ ـ الوحي وحضور الروح القدس في الكنيسة.

٢ ـ التقليد الحي في الكنيسة الذي يشمل الإيمان المستقيم والعقيدة الصحيحة، أي التقليد التفسيري والعقيدي.

٣ ـ العمل الليتورجي داخل الكنيسة والحياة الروحية النُسكية (حياة الفضيلة).

١ ــ فيما يتعلق بالوحي، فالقديس كيرلس يعتمد على (٢تي٣:١٦) «كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم»، وعندما يتعرض للطريقة التي كتب بها الكُتَّاب المقدسين، النصوص المقدسة فهو

يعتقد في التقليد الإسكندري الذي يؤمن بأن الكُتَّاب قد قبلوا الكلمة الإلهية بإعلان مباشر من فم الرب وكتبوه بإلهام مباشر من الروح القدس الذي هو وسيط يعلن الكلمة الإلهية لأنه هو الذي يعرف ويفحص أعماق الله (١كو٢: ١٠). الروح القدس يمنح الكاتب الأذن الروحية ليسمع كلمة الله (تفسير إشعياء٢:٢ P.G. 70، 349D). وفي هذه الحالة لا يفقد النبي قوته ووعيه الذهني، ولا يصير كمجرد أداة ميكانيكية في يد الروح القدس، ولكن بطريقة و اعية وتفكير في الأشياء المعلنة كانوا يكتبون الإعلان الإلهي سواء كان عن طريق السمع أو الرؤى، وهو على ذلك ناقص وليس كاملاً، لأنه يتجاوب ويتمشى مع محدودية الطبيعة البشرية. فالكلمة الإلهية المكتوبة في علاقتها بجوهر الشيء الذي تريد أن تعلن عنه، هي نموذج ومثال وظل وسر وتحتاج لحضور الروح القدس لكي يعلن المفهوم الروحي العميق المستتر وراء الكلمة. وبناء على ذلك، فالكتاب المقدس يُفهم فقط داخل الكنيسة وذلك بالروح القدس الحاضر في الكنيسة. الطبيعة البشرية بمفردها لا تستطيع أن تكشف الأسرار الإلهية(شرح يوحنا١١، P.G. 74، 464B). فالحاجة الدائمة إلى عمل الروح القدس في تنقية الذهن وفي تحرره من أي انشغال مادي أو اضطراب معيشي (P.G. 71، 868)

الروح القدس ينير الذهن ليفهم ما هو مخفي ومستتر وراء النص اللغوي، لأن الكلمة الكتابية كما قلنا سابقًا هي عادةً كلمة تخفي داخلها المعنى الروحي. إن سر الله هو عطية إلهية للإنسان، لكي يستطيع أن يصل إلى معرفة هذا السر وذلك فقط بغنى النعمة الإلهية (شرح يوحنا٤: ١، P.G. 73، 552C). هذا العمل يتممه الروح القدس، الذي يمنح الطبيعة الإنسانية الصلاح أي معرفة الأسرار الإلهية، هذه

المعرفة تنير القلب والعقل. لذلك لأجل فهم سليم للكلمة الكتابية يتطلب صلاة نحو الله لكي يرسل نوره لينير العقل (شرح يوحنا٤:٣، P.G. 73، 605D).

إذن التفسير الصحيح للكتاب والذي ينتهي إلى الرؤية الروحية، إلى جمال الحق هو عطية الله وعطية المسيح وعطية الروح القدس. (شرح يوحنا٣:٢، P.G. 73، 412D). (تفسير إشعياء٣:٤، P.G. 70، 800B).

٢ - **من أجل فهم صحيح للكتاب**، قد اتبع كل مِن القديس كيرلس، والقديس أثناسيوس في أنه لابد أن نعرف الهدف العام للكتاب، الذي هو سر المسيح، أي التأنس. ولكن عند القديس كيرلس يربط الهدف العام أيضًا بالوحدة الغير منفصلة بين الآب والابن (شرح يوحنا١١، P.G. 74، 509). أو بسر الثالوث (شرح يوحنا٩، P.G. 74، 237A).

وبناء على ذلك فإن هدف الكتاب المقدس يتطابق مع الإيمان المستقيم وكل ما يتعلق بعمل تدبير الثالوث. هذا الإيمان يسميه القديس كيرلس "المعرفة الكاملة" التي تتقابل مع دقة العقيدة وتتجاوب مع الهدف الداخلي للكتاب الذي نراه باستنارة الروح القدس. وبهذا المعني فإن المعرفة الكاملة هي ثمرة التفسير الروحي للكتاب. أيضًا يشدد القديس كيرلس على أن استقامة الإيمان أو المعرفة الكاملة ليست هي فقط الهدف الداخلي للكتاب، ولكن يتعلق أيضًا بـ " فكر" الآباء (شرح يوحنا٩، P.G. 74، 216C). إن الفكر الآبائي هو المفهوم الأصح للكتب الإلهية فنحن ملتزمون بالتقليد الحي للآباء والذي يرجع إلى استنارة وعمل الروح الذي صيّغ في اعترافات الإيمان (P.G. 77، 109D). هذا التقليد يمثل معيار وعلامة محورية

للتفسير الكتابي ولذلك من الضروري أن نقتفي آثار "هدف" الحكمة الآبائية.

٣ ــ إن هدف الكتاب المقدس يحيا ويعمل داخل الحياة الليتورجية في الكنيسة. الكنيسة ترتبط مباشرة بتدبير التجسد وتبعًا لذلك بهدف الكتاب. لذلك يعطي القديس كيرلس تفسيرًا لجبل صهيون، وجبل الجليل وأورشليم .. على أنها الكنيسة (تفسير إشعياء ١:٢، P.G. 70، 68D).

إن سر التدبير الإلهي يُتمم بطريقة سرية في الكنيسة، لذلك هي "البيت المقدس للمخلص". كل مَنْ يجهل هذا البيت ويكتفي بالتفسير الجسدي (الحرفي) للكتاب ليس لديه إمكانية الخلاص.

يشدد القديس كيرلس على أن داخل الكنيسة يستطيع المؤمن أن يري ويشارك ما تممه المخلص، وبذلك يستطيع أن يخلص (شرح يوحنا٢:١، P.G. 73، 217AB).

إن حياة الإيمان المعاش في الكنيسة والمشاركة في الأسرار الكنسية واختبار حياة الفضيلة اليومية، أمور ضرورية وأساسية للتفسير الصحيح للكتاب.

أخيرًا من كل ما سبق نري أن القديس كيرلس يرد على التراث غير الأرثوذكسي في التفسير، والمبادئ التي شرحها لنا هي مهمة جدًا لنا اليوم لكي نميز بين التفسير الأرثوذكسي والتفسير غير الأرثوذكسي للكتاب، فالقضية ليست قضية فردية، ولكن هي موضوع الكنيسة الحاملة للإعلان الإلهي والتي بدونها الكتاب المقدس ليس له أي معنى حقيقي إذ يظل لغزًا وظلاً ومثالاً وأمور نظرية مجردة، أما في الكنيسة فيتحقق سر التدبير أي كل ما تممه المسيح عن طريق

الأسرار، ويصبح الكتاب متجسدًا ينير العقل ويطهر القلب ويقود الإنسان في مسيرة شركة واتحاد مع الله بواسطة المسيح في الروح القدس، حتى يستطيع المؤمن أن يقول مع القديس يوحنا "الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة" (١يو ١:١).

أسئلة الفصل الثالث

١ـ أذكر أعمال القديس كيرلس التفسيرية أي بكونه مفسر للكتاب المقدس؟

٢ـ ما هي الملامح الأساسية للتفسير عند القديس كيرلس مع الشرح؟

٣ـ ما هي الأسباب التي تجعلنا نتمسك بالعهد القديم بحسب تعليم القديس كيرلس؟

٤ـ متى يكون العهد القديم ظِل للعهد الجديد؟

٥ـ ما هو هدف الكتاب المقدس؟

الفصل الرابع

أمثلة تفسيرية للقديس كيرلس الإسكندري

١- المباديء الأساسية التي تبناها القديس كيرلس في تفسيره للكتاب المقدس في المقالة الأولى من كتاب السجود والعبادة بالروح والحق[٤٥]

إن مسألة فِهم الكتب المقدسة تتطلب سعياً جاداً في طلب المسيح المستتر في هذه الكتب، وهذا الأمر سبق أن أكد عليه القديس كيرلس في مقدمة المقالة الأولى من عمله المُسمى: جلافيرا، قائلاً: «قال المسيح لجموع اليهود «فتشوا الكتب» (يو ٥:٣٩)، مظهراً لهم بوضوح أن البعض لن يستطيعوا أن يأتوا إلى الحياة الأبدية، إن لم ينقبوا بعمق، كما في كنز، في الناموس، وإن لم يسعوا بجدية في طلب الجوهرة (اللؤلؤة) المخفية فيه، أي المسيح، «المزخر فيه كل كنوز الحكمة والعلم» (كو ٢:٣)، طبقا لما قاله بولس الطوباوي»[٤٦]

---

[٤٥] القديس كيرلس الإسكندري عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، ترجمة ومقدمة وتعليق د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، ٢٠١٣م، ص ٣١-٨١

[٤٦] القديس كيرلس الأسكندري، جيلافيرا على سفر التكوين، المقالة الأولى، الكتاب الشهري ٢٠٠٣

ما جئت لأنقض... بل لأكمِّل

ما الذي يقصده ربنا يسوع المسيح بما يقوله في الإنجيل بحسب متى: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لِأُكَمِّلَ. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ» (مت ٥: ١٧ - ١٨). وأيضاً ما الذي يقصده بقوله للمرأة السامرية في إنجيل يوحنا: «يَا امْرَأَةُ صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ لاَ فِي هَذَا الْجَبَلِ وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ. أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَمَّا نَحْنُ فَنَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ لأَنَّ الْخَلاَصَ هُوَ مِنَ الْيَهُودِ. وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هَؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اَللَّهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا» (يو ٤: ٢١ - ٢٤).

يؤكد القديس كيرلس على أن الكلمة المقدسة تأمرنا بأن نتحرر من العادات القديمة، ونكفَّ عن أن نتبرر بالناموس. لقد قال بولس لهؤلاء الذين يريدون أن يتبرروا بالناموس بعد إيمانهم بالمسيح: «قَدْ تَبَطَّلْتُمْ عَنِ الْمَسِيحِ أَيُّهَا الَّذِينَ تَتَبَرَّرُونَ بِالنَّامُوسِ. سَقَطْتُمْ مِنَ النِّعْمَةِ. فَإِنَّنَا بِالرُّوحِ مِنَ الإِيمَانِ نَتَوَقَّعُ رَجَاءَ بِرٍّ» (غلا ٥: ٤ - ٥). وبينما يُظهر الرسول بولس دوافع مُشرِّفة وعظيمة من أجل الافتخار بالحياة وفق الناموس، نجده – كما يقول القديس كيرلس - يُقرر أيضاً أن «مَا كَانَ لِي رِبْحاً فَهَذَا قَدْ حَسِبْتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ خَسَارَةً. بَلْ إِنِّي أَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضاً خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَسِرْتُ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ. وَأُوجَدَ فِيهِ، وَلَيْسَ لِي بِرِّي الَّذِي مِنَ النَّامُوسِ، بَلِ

الَّذِي بِإِيمَانِ الْمَسِيحِ، الْبِرُّ الَّذِي مِنَ اللهِ بِالإِيمَانِ» (فيلبى ٣: ٧ - ٩).

ويؤكد بوضوح أن الوصية القديمة لم تكن بلا لوم. ومع ذلك حلَّت الوصية الجديدة، أي الإنجيلية محل الوصية القديمة لمنفعتنا بواسطة المسيح. يوجد فرق شاسع بين الوصيتين القديمة والجديدة بقدر الفارق الشاسع بين يسوع وموسى وكذلك بين النعمة والناموس، إذ يؤكد القديس كيرلس على هذه الحقيقة في موضع آخر، قائلاً: «وعلى كل من يريد أن يتعلم أن يدرس النعمة الإنجيلية التي وُهبت لنا بواسطة المخلص ويقارنها بنعمة الناموس التي أعطيت بواسطة موسى، فسوف يرى أن الابن أسمى بكثير، لأنه هو واضع الناموس الأعظم الذي يهب الخيرات أفضل من الناموس الموسوي. ولذلك يقول الإنجيلي «الناموس أعطي بموسى أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» [٤٧]. وبناءً على ذلك يكتب: «فَإِنَّهُ يَصِيرُ إِبْطَالُ الْوَصِيَّةِ السَّابِقَةِ مِنْ أَجْلِ ضُعْفِهَا وَعَدَمِ نَفْعِهَا، إِذِ النَّامُوسُ لَمْ يُكَمِّلْ شَيْئاً. وَلَكِنْ يَصِيرُ إِدْخَالُ رَجَاءٍ أَفْضَلَ بِهِ نَقْتَرِبُ إِلَى اللهِ» (عب ٧: ١٨ - ١٩). لأنه لو كانت الوصية الأولى قد أُعطيت لكمالنا لَمَا كانت هناك حاجةٌ للثانية لأنه يقول: «فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ الأَوَّلُ بِلاَ عَيْبٍ لَمَا طُلِبَ مَوْضِعٌ لِثَانٍ. لأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ لاَئِماً: «هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُ الرَّبُّ، حِينَ أُكَمِّلُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمَعَ بَيْتِ يَهُوذَا عَهْداً جَدِيداً. لاَ كَالْعَهْدِ الَّذِي عَمِلْتُهُ مَعَ آبَائِهِمْ يَوْمَ أَمْسَكْتُ بِيَدِهِمْ لأُخْرِجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَثْبُتُوا فِي عَهْدِي، وَأَنَا أَهْمَلْتُهُمْ يَقُولُ الرَّبُّ. لأَنَّ هَذَا هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَعْهَدُهُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ بَعْدَ تِلْكَ الأَيَّام يَقُولُ الرَّبُّ: أَجْعَلُ نَوَامِيسِي فِي أَذْهَانِهِمْ، وَأَكْتُبُهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَنَا أَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً وَهُمْ

---

٤٧ القديس كيرلس الأسكندري، شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد وآخرون، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠٠٩م، ص ١٤٧.

يَكُونُونَ لِي شَعْباً» (عب ٨: ٧ - ١٠). وبولس الرسول يتأمل في كل هذا ويفسر بشكل خاص مفهوم العهد الجديد قائلاً: «فَإِذْ قَالَ «جَدِيداً» عَتَّقَ الأَوَّلَ. وَأَمَّا مَا عَتَقَ وَشَاخَ فَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الاِضْمِحْلاَلِ» (عب ٨: ١٣). يلخص القديس كيرلس ما يريد أن يقوله بشأن الناموس مؤكدًا على أن الحياة (في المسيح) ليست منفصلةً تماماً عن ما جاء في الناموس، لو فُهِمَ الناموس بالمفهوم الروحي لأن الناموس هو مثالُ وظِلُّ التقوى، والحقيقة فيه لا تزال في فترة المخاض، وجمال الحقيقة هذه مُخفيٌّ داخل الناموس.

حياة الفضيلة

البُعد النسكي أساس من أساسيات التفسير

الحياة المسيحية تُزيَّنُ بعددٍ لا حصر له من الأعمال الصالحة. ولأجل ذلك يضع داود العظيم في مزمور ٤٥ بجوار المسيح -في مكان الملكة- الكنيسةَ، كعذراء نقية ويُحوطها بزي مُوشَّى بالذهب قائلاً: «جُعلت الملكة عن يمينك مزينة بذهب أوفير» (مز ٤٥: ٩). إن تعبير «بذهب» يعبِّر – كما يؤكد القديس كيرلس - عن كرامتها وإشراقها، بينما كلمة «مزيَّنة» تعني كثرة جمال الفضيلة. فالكنيسة ذات جمال بالغ، وزينتها عقليةٌ لا تُرى بالأعين الجسدية، بل تُرى بالعقل والقلب، وهى خفية عن اليهودي، بينما تظهر لنا نحن في جمال رائع وأصيل بلا حدود.

لأنه كما يكتب الطوباوي بولس: «لأَنَّ الْيَهُودِيَّ فِي الظَّاهِرِ لَيْسَ هُوَ يَهُودِيًّا وَلاَ الْخِتَانُ الَّذِي فِي الظَّاهِرِ فِي اللَّحْمِ خِتَاناً. بَلِ الْيَهُودِيُّ فِي الْخَفَاءِ هُوَ الْيَهُودِيُّ وَخِتَانُ الْقَلْبِ بِالرُّوحِ لاَ بِالْكِتَابِ هُوَ الْخِتَانُ الَّذِي

مَذْحُهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ بَلْ مِنَ اللهِ» (رو ٢: ٢٨ - ٢٩). إذن على مَنْ يريد ان يدرك نصوص الكتاب المقدس إدراكًا صحيحًا أن يكون مزينًا بالفضائل حتى يتمكن من رؤية جمال الحق في نصوص الكتاب.

منفعة الناموس الفعلية وأهميته

قد تحول الناموس - بحسب القديس كيرلس - بالأحرى إلى إشارة نحو الحقيقة، خصوصاً وقد كتب الطوباوي بولس: «أَفَنُبْطِلُ النَّامُوسَ بِالإِيمَانِ؟ حَاشَا! بَلْ نُثَبِّتُ النَّامُوسَ» (رو ٣: ٣١). لأن الناموس مُربٍّ يقود بطريقةٍ حسنةٍ إلى سر المسيح. نؤكد دائماً كما علمنا القديس كيرلس على ان الناموس يشير فقط إلى الحقيقة، إذ في سياق شرحه لمعجزة تحويل الماء إلى خمر يقول: «لكن الخمر فرغت ولم يعد لدى المحتفلين منها أي شيء لأن الناموس لم يكمل شيئاً، ولم تعط الوصايا الموسوية الفرح، ولم يستطع الناموس الطبيعي المغروس فينا أن يخلصنا. ولذلك من الصواب أن نقول إن «ليس عندهم خمر» قد قيلت عنا نحن أيضاً. ولكن صلاح الله وغناه لا ينضب، ولا يمكن أن يعجز أمام احتياجاتنا. لقد أعطانا خمراً أفضل من الخمر الأول، لأن الحرف يقتل أما الروح فيعطي حياة (٢ كور٣: ٦) والناموس لم يكمل شيئاً، ولم يعط الخيرات، ولكن التعليم الإلهي للإنجيل يعطي البركة الكاملة»[٤٨].

لم يأتِ إطلاقاً لكي يشكو الناموس، بل بالحرى لكي يُكَمِّله، فلا تُظن أن تغييراً كاملاً للشرائع القديمة قد حدث، بل على الأرجح تم تجديدها بطريقةٍ ما. وأستطيع أن أقول إنه حدث نقلٌ لنماذجَ أو أمثلةٍ (من العهد القديم) إلى الحقيقة، أي من الظلال إلى الحقيقة[٤٩].

٤٨ القديس كيرلس الإسكندري، شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ١٦٩

٤٩ إن مبدأ التفسير المَثَلاني (الطيبولوجي) أي التفتيش عن النماذج والأمثلة الموجودة في نصوص

يطرح القديس كيرلس مثالاً لتوضيح هذه الحقيقة : الفنانون الذين يرسمون ويكتبون على الألواح، لا تكون كتابتهم أو رسمهم كاملاً مباشرةً بمجرد أن يبدأوا الكتابة، بحيث يكون الرسم في شكل كامل وغير ناقص ومكتمل تماماً. ولكنهم في البداية يضعون تخطيطاً لشكل الرسم ولونه، بحيث يصبح ذي جودة فائقة، ويختارون المواضع التي تحتاج إلى ظلال معينة. وإلى أي الدرجات يجب أن تُبَيَّن وتُوضَّحْ حتى يصلوا إلى الشكل المطلوب، والأكثر مناسبة. وهكذا يصلون بنماذجهم إلى الشكل الذي نراه أخيراً. وهو الأفضل بشكل لا يقارن عما كان في البداية.

كذلك أيضاً الذين يمارسون فن صنع التماثيل النحاسية، إن أرادوا صب النحاس السائل في قالب التمثال المُعد لذلك، فإنهم يُصوِّرون أولاً شكل التمثال على نموذج شمعى، ويُصنع القالب على هذا النموذج، وبعد ذلك يُذيبون النحاس على النار ويسكبونه في القالب. وهكذا يضيفون لتحفتهم -بطريقة حسنة- كمالاً وجمالاً. وعندما يضيف الصانع الألوان المتنوعة فوق آثار الرسم، وأيضاً عند إحلال النحاس محل النموذج الشمعي، يُظَن في لحظة ما، أن الأشكال الأولى قد نُقِضَت وأُبطِلت. لكن الأمر ليس كذلك؛ لأنه لو كان هذا الاعتقاد حقيقياً، لقال الرسام والصانع إننا لم نلغِ آثار الكتابة،

الكتاب المقدس وتشير إلى الحقيقة التي تتم بواسطة المسيح، نجده مبكراً في عصر المدافعين ويبدو أنه يمثل تقليداً مسيحياً عاماً، كان يعرفه القديس كيرلس عمود الدين. هكذا حضور اللوغوس في العهد القديم كان مباشراً وغير مباشر. مباشر حين ظهر بأشكال مختلفة في حياة البطاركة والمختارين وأنبياء العهد القديم وتحدث معهم، وغير مباشر حين أعلن مسبقاً بالقول النبوي وصُوِّر في أحداث الشعب القديم التاريخية المختلفة. وقد تعرَّف يوستينوس على أنواع "نماذج" في العهد القديم قد أعلنت مسبقاً حوادث في حياة المسيح. أنظر يوستينوس، الحوار مع تريفون، على سبيل المثال ٤٠، ٤١. القديس يوستينوس، الدفاع عن المسيحيين. الحوار مع تريفون تعريب الأب جورج نصور (+ ١٩٧٦)، الكسليك ٢٠٠٧. والجدير بالذكر أن مركز باناريون نشر نفس هذه العمل في مجلد واحد، ترجمة آمال فؤاد ومراجعة مجموعة من المراجعين، مايو ٢٠١٢ م.

ولم نسئ إطلاقاً استخدام النماذج، لكن بالحرى قد أكملناها. أي أن ما كان يبدو غير واضح وبدون جمال في الظلال والنماذج الأولى، صار الآن أكثر روعةً ووضوحاً[٥٠].

بالتالي حين نقرأ الكتاب المقدس وبالحري العهد القديم يكون المسيح وعمله الفدائي هو محور إهتمامنا، إذ نبحث في نصوص الكتاب عن الأمثلة والنماذج التي كانت مجرد ظلال لشخص المسيح وعمله الخلاصي.

الناموس في ضوء العهد الجديد

« وَنَحْنُ جَمِيعاً نَاظِرِينَ مَجْدَ الرَّبِّ بِوَجْهٍ مَكْشُوفٍ، كَمَا فِي مِرْآةٍ، نَتَغَيَّرُ إِلَى تِلْكَ الصُّورَةِ عَيْنِهَا، مِنْ مَجْدٍ إِلَى مَجْدٍ، كَمَا مِنَ الرَّبِّ الرُّوحِ»[٥١]. هنا كلمة «الرب» تعني «الروح». فكما لا يستطيع أولئك الذين ينظرون في مرآة -كي يشاهدوا صورةً ونموذجاً

---

٥٠ القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق ، ترجمة ومقدمة وتعليقات د. جورج عوض مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدرلسات الآبائية، القاهرة ٢٠١٠م، المقالة الأولى، ص ٢٨. ومن النماذج والأمثلة التي أصبحت أكثر وضوحاً وجمالاً في المسيح ما ذكره القديس يوستينوس في حواره مع تريفون، على سبيل المثال الآتي: الحمل الفصحي هو مثال لذبيحة المسيح، طريقة الشواء هي مثال للصليب: "إن الحمل الفصحي الذي أمركم الله بذبحه كان رمزاً نموذجياً للمسيح الممسوح. كذلك الأمر الذي كان يقضي بشواء الحمل كله، كان رمزاً لعذاب الصليب الذي كان يجب على المسيح أن يتحمله" (الحوار ٤٠: ١، ٣)، أيضاً تقدمه الدقيق هي نموذج لخبز الإفخارستيا (الحوار ٤١: ١)، الختان بحسب الجسد هو رمز الختان الحقيقي في الروح (أثناء المعمودية) (الحوار ٤١: ٤. ٤٣: ٢)، وصلاة موسى رافعاً يديه على شكل الصليب هو سر نصرة الشعب في القديم (أنظر الحوار ٩٠: ٤، ٥) وكذلك الخيط القرمزي الذي وضعته راحاب الزانية على شباك البيت هو رمز لدم المسيح. "ورمز الخيط القرمزي الذي أعطاه في أريحا الجاسوسان اللذان أرسلهما يشوع بن نون لراحاب الزانية (انظر يش ٢: ١٧ - ١٨)، وطلبا منها أن تعقده في الطاق الذي دلتهما منه ونجتهما من الأعداء، يُظهر هو أيضاً رمز دم المسيح الذي بواسطته ينجو الذين كانوا بُغاة وظالمين في كل الأمم" (الحوار ١١١: ٤)، بركات يعقوب تخص بركات الكنيسة (الحوار ١٢٠: ١)، السبت يرمز للراحة من فعل الخطية (الحوار ١٤: ٢)، الفطير يرمز إلى حياة القيامة، ونفس الأمر اليوم الثامن، أما شجرة المعرفة في الفردوس فهي إعلان مسبق للمسيح (الحوار ٨٤: ١)، وتجربة آدم هي إعلان مسبق لتجربة المسيح (الحوار ١٠٣: ٦).

٥١ في نص القديس كيرلس "بواسطة الروح الذي هو الرب" (٢ كو ٣: ١٧ - ١٨).

للحقيقة- رؤية الحقيقة نفسها، على ما أعتقد. هكذا أيضاً، كل مَن يرغب في مشاهدة (صورة) جمال الحياة في المسيح عن طريق مرآة الناموس، يمكنه أن ينال هذا الذي يتمناه بطريقة حسنة. بمعنى أنه يمكنه أن يرى صورة الأشياء أو نموذجاً لها، وفيها يتعرف على حقيقة الأشياء، وهكذا يمكنه أن يرى بكل وضوح هذا الذي يريده الله ويُسر به.

لذلك حين ندرس الكتاب المقدس ننشغل دائمًا برؤية جمال الحياة في المسيح عن طريق مرآة الناموس. وهذا لا يعني عدم إستخدام مناهج وأساليب تجعلنا ندرك النص جيدًا لكن إستخدامنا لكل هذا لكي يخدم هدفنا من قراءة نصوص الكتاب الذي هو رؤية جمال الحياة في المسيح يسوع.

الناموس، غذاءٌ للأطفال ؟! (عب ٥: ١٢ - ١٤)

إن الذين تحرروا من أرض مصر، كانوا في أشد الحاجة إلى غذاءٍ يُناسب الأطفال. إذ كان ذهنهم غليظاً، وكان من السهل إغواؤهم نحو الضلال. لذلك كان من الصعب عليهم ترك محبة الجسد ومحوها تماماً من المرضى بها. كما أن أولئك المأسورين في شهواتهم كان من العسير عليهم تجنبها. وكان من المستحيل أيضاً أن ينالوا مباشرةً القدرة على الوصول إلى حياة الكمال، مفضِّلين حياةً مجيدةً مُشرقةً وفائقةً، إلى الحد الذي ينالون فيه مواطنة السماء، بالرغم من أنهم ما زالوا يعيشون على الأرض، بحسب ما هو مكتوب (فيلبى ٣: ٢٠).

كانت الحاجة إذن، إلى التربية باستخدام أسلوب الأمثال، إذ كانوا أطفالاً، كانوا في احتياج إلى طعام أكثر ليونة، وليس إلى الكلمة التي تُوجّههم نحو الكمال والتي تقودهم نحو النضوج.

وبالتالي علينا أن نركز أيضًا على البُعد الرعوي في تفسيراتنا لنصوص الكتاب وليتفق مع المستوى الروحي للمتلقين.

معرفة قصة التدبير الخلاصي معرفة صحيحة

الخلق والسقوط والخلاص

تفسير الكتاب المقدس تفسيرًا صحيحًا يتوقف على إدراكنا الصحيح لتدبير الله الخلاصي.

بحسب القديس كيرلس، إن الإنسان خُلِق، وكان فكره منذ البداية يسمو فوق الخطايا والشهوات، لكنه لم يكن مُحصَّناً تماماً من الانحراف في اختياراته(٥٢). لأن الخالق الأعظم للجميع، قد رأى حسناً أن يترك الإنسان لإرادته المستنيرة سامحاً له أن يصنع ما يفكر فيه بدافع من نفسه فقط. إذن، خَلَقَ الإنسان، ذلك الكائن الحي بطبيعة خاصةً به كإنسان، مانحاً إياه غنى التشبُّه به(٥٣)؛ لأن صورة

٥٢ سبق للقديس إيرينيوس التأكيد على هذا المعنى، قائلاً: "وإذ جعل الإنسان (آدم) سيداً على الأرض وكل شيء فيها، فإنه جعله كذلك سيداً على الكائنات التي كان ينبغي أن تخدمه. ولكن بينما كانت هذه الكائنات الأخيرة في قمة قوتها، كان سيدها أي الإنسان لا يزال صغيراً، كان طفلاً عليه أن ينمو لكي يحقق كماله" الكرازة الرسولية ١٢: ٧٨. هذا التعليم بأن الإنسان الأول كان طفلاً من جهة النضوج فى الإيمان، سبق إبرازه عن طريق القديس إيرينيوس الذى أراد أن يشدّد على أن الإنسان الأول كان مدعواً لمسيرة نحو الكمال. والجدير بالذكر أن هذه الدعوة تحدث عنها القديس باسيليوس الكبير الذى نادى بأن الهبات الإلهية ترمى إلى إصعاد الإنسان إلى حالة الكمال، أى الصعود من الخلق بـ"حسب الصورة" إلى "حسب المثال"، بمعنى تحقيق كل إمكانيات الصورة. وهذا الصعود مستمر ودائم مثل عطايا الله التى هي دائمة ومتجدّدة بالروح القدس (انظر القديس باسيليوس الكبير، الله ليس مسبباً للشرور، PG31. 345، لاحظ نفسك PG31. 212B - 213A، أيضاً عن الروح القدس PG32: 109BC. وفى موضع آخر يقول القديس كيرلس: "لا ينبغى أن يشك أحد فى أن الإنسان قد جاء إلى الوجود ليس لأجل أعمال مخزية بل لأجل عمل كل ما هو ممدوح، بما أنه ثمرة إبداع الله الصالح. ولكن تظل الحقيقة قائمة أنه خُلق سيداً لنفسه وحراً، وقادراً على التحرك بواسطة قوة إرادته الخاصة نحو أي اتجاه يختاره سواء كان خيراً أو شراً" ضد يوليانوس الجاحد (PG76، 925). راجع أيضاً: Θεοφιλου Αντιοχειας، προς Αυτολυκον2،27

٥٣ يقول أيضاً القديس إيرينيوس موضحاً مفهوم "الصورة" و"الشبه": "الصورة" تتضمن المواهب الطبيعية، وعلى الأخص العقل وحرية الإرادة، وهذه لا يمكن أن تُفقد. و"الشبه" فائق للطبيعة

الطبيعة الإلهية رُسمت في الطبيعة البشرية بنفخة الروح القدس. وبما إن الله هو الحياة ـ بحسب الطبيعة ـ لذلك فهو يعطي نسمة الحياة[٥٤].

من غير الصواب أن يعتقد المرء أن الروح قد تغيَّر إلى نفسٍ، ووُضِع في طبيعة الإنسان. بل على العكس، فقد أخذت نفس الإنسان قوةً فائقة الوصف وزُيِّنت منذ اللحظة الأولى بعطية الروح. لأنه لا توجد طريقة أخرى نستطيع بها أن نكتسب جمال الصورة الإلهية.

أُعطى للإنسان قانونٌ لضبط النفس

إن اقتناء المجد بسهولة كبيرة، والحرية التي بغير ضابط تقود ـ كما يؤكد القديس كيرلس ـ نحو شهوة الكبرياء الملعونة، لذلك أُعطى للإنسان قانونٌ لضبط النفس كوسيلة أمان[٥٥]، حتى لا يُقاد إلى تجاهل

وهو اقتناء الكلمة وشركة الروح، وهذا فقده آدم واسترجعه المسيح" (AH5:6:1).

٥٤ يتحدث القديس كيرلس الأسكندرى -في موضع آخر- عن تميّز خلقة الإنسان عن سائر المخلوقات قائلاً: "فقد مضى في خلق الإنسان وجعل خلقته أسمى منها جميعاً، على الرغم من أن كل المخلوقات الأخرى صنعها بكلمته. ولأن الإنسان يعتبر وجوداً حياً وعبقرياً بالحقيقة وشبيهاً جداً بالله، وحتى لا يُعتبر أن هذا الذى كان شبيهاً جداً بالمجد السماوي خُلِق بنفس الطريقة التى خُلِقت بها المخلوقات الأخرى التى لم تكن هكذا، كرّم خلقته وذلك بإرادته الإلهية فقط، وعلى الرغم من أنه قد خلقه من الطين، إلا أنه كائن حى عاقل ونفخ فيه مباشرة روح خالدة ومحيية، لأنه مكتوب: "ونفخ فى وجهه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية" (تك٢:٧)" جلافيرا، الكتاب الشهري، نوفمبر ٢٠٠٣، ص ١٣.

٥٥ يقول القديس إيرينيوس: "لكن لكي لا يتعاظم الإنسان ولا يهاجمه الغرور، كأن لا رب له، ولكى لا يتصور تصورات خاطئة في علاقاته مع الله، خالقه، بسبب القوة والحرية المحيطين به ويتجاوز حدوده المعينة له، ولكى لا ينزلق بسبب أفكار التعالي ويتمرد على الله، أعطى إليه ناموسٌ من الله، لكي يعلّمه أن سيده وربه، هو رب الكل. الله وضع له حدوداً معينة، حتى يمكنه أن يظل دائماً في هذه الحالة، أى غير مائت، لو حفظ وصايا الله، بينما لو ظل غير مؤمن، فسيدركه الموت وسيرجع إلى الأرض التي أُخذ منها. وكانت الوصية هى: "من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت" تك ٢:١٦ ـ ١٧". نفس هذا التعليم نجده –في موضع آخر- عند القديس كيرلس: "ولأن هذا الإنسان الذى وصل الى مثل هذه الدرجة من المجد والسعادة، كان يجب عليه أن يعرف جيداً إن سلطان الله الملك والرب يفوق كل ما يمتلكه، وحتى لا ينزلق سريعاً بسبب امتيازاته الكثيرة إلى الاعتقاد بأنه صار حراً من سلطان الله وسموه، أعطاه الله على الفور وصية". تعليقات لامعة

السيد، بل يكون مدعواً دائماً لتذكر ذاك الذي أعطاه الوصايا، كسيدٍ له، هكذا يعرف بكل وضوح أنه كان خاضعاً لنواميس سيده.

السقوط : حسد إبليس

لم يهدأ الشيطان ذاك الوحش الشرير والمحارب لله، إذ هو مُبتدعٌ وأبٌ للخطية والفساد[٥٦]، لأنه في الحقيقة لم يُرد أن يترك الإنسان بلا منغصات، ساعياً فيما بعد بتغريراتٍ وحيل ليدفعه نحو العصيان.

ما حدث مع آدم بطريقة مادية ومحسوسة، يمكن أن يحدث ذهنياً

إن ما حدث مع آدم بطريقة مادية ومحسوسة، يمكن ـ كما يشرح القديس كيرلس ـ أن يحدث ذهنياً وبطريقة غير محسوسة مع كل واحد منا، حيث تظهر أمام العقل، شهوةٌ تبهره وتجذبه تدريجياً نحو الاعتقاد بأن مخالفة الناموس ليست أمراً خطيراً على الإطلاق. ويؤكد على هذا تلميذ المسيح حين يقول: «لاَ يَقُلْ أَحَدٌ إِذَا جُرِّبَ إِنِّي أُجَرَّبُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، لأَنَّ اللَّهَ غَيْرُ مُجَرَّبٍ بِالشُّرُورِ وَهُوَ لاَ يُجَرِّبُ أَحَداً. وَلَكِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُجَرَّبُ إِذَا انْجَذَبَ وَانْخَدَعَ مِنْ شَهْوَتِهِ. ثُمَّ الشَّهْوَةُ إِذَا حَبِلَتْ تَلِدُ خَطِيَّةً، وَالْخَطِيَّةُ إِذَا كَمَلَتْ تُنْتِجُ مَوْتاً» (يع ١: ١٣ ـ ١٥).

يمكن للطبيعة البشرية أن تسقط بسهولة في مرض الانحراف والأمور غير اللائقة، إن لم تسمو بالفضيلة وبنعمة مخلصها، وإن لم تهتم بالصالحات التي من السماء، وأيضاً بالصلاح الذي من داخل النفس ذاتها.

(جلافيرا) المرجع السابق، نوفمبر ٢٠٠٣، ص ١٣.

٥٦ يصف أيضاً القديس إيرينيوس هذا المخادع، قائلاً: ”ولكن الإنسان لم يحفظ هذه الوصية، ولا أطاع الله، لكن خُدع من الملاك (الساقط) الذي حسده بسبب العطايا الكثيرة التي أعطاها الله للإنسان، وجلب له الدمار وجعله خاطئاً، مقنعاً إياه أن يخالف وصية الله. بنفس الطريقة، إذ صار الملاك (الساقط) بواسطة الأكاذيب أباً ومدبراً للخطية، فإنه طُرد لأنه كان مضاداً لله وصار سبباً في طرد الإنسان من الفردوس“. الكرازة الرسولية ١٦:٨١.

بحسب القديس كيرلس، دراسة الكتاب المقدس من جانبنا ليس هدفه بالدرجة الأولى معلوماتي، ثقافي بل لأن الكتاب يحتوى على الخبز الحي، أي كلمة الله التي تشبعنا روحياً. لأنه مكتوب: «الخبز الحى يسند قلب الإنسان» (مز ١٠٤: ١٥). هذا (الخبز) يُحررنا من العبودية والشهوات، ويُزين نفوسنا ببهاء الحرية. لكن إن كفَّ الله يده أو توقف عن أن يمنحنا هذا الصلاح، فسوف نسقط بالضرورة في الشرور غير المرغوبة، ونفتقر إلى الفضيلة، متحملين كل ما يقع على عاتقنا بسبب فعل كل ما هو ضد الفضيلة. ونصل إلى مستوى من الشرور والطمع، للدرجة التي فيها نخاطر بفقدان الضمير الذي يعضدنا في اكتساب كل صلاح.

أمثلة كتابية تشير رمزياً إلى تدبير الله الخلاصي

تغرُّب أبرام كنموذج لانحدار الإنسان

التفسير الحرفي أو التاريخي: مكتوب عن أبينا إبراهيم «وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ لأَنَّ الْجُوعَ فِي الأَرْضِ كَانَ شَدِيداً» (تك ١٢: ١٠)، إبراهيم ترك أرضه المحبوبة والمولود فيها، وهاجر إلى أخرى أظهرها له الله. لأنه يقول: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ» (تك ١٢: ١). وعندما تفاقم الجوع مسبباً أضراراً، اضطر بدون إرادته، أن يذهب إلى مصر. ولم يذهب إلى هناك ليسكن على الدوام، لكنه ذهب إليها كغريب.

لقد اشتكى الله عصيان اليهود قائلاً: «هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ أُرْسِلُ جُوعاً فِي الأَرْضِ لاَ جُوعاً لِلْخُبْزِ وَلاَ عَطَشاً لِلْمَاءِ بَلْ

لاِسْتِمَاعِ كَلِمَاتِ الرَّبِّ. فَيَجُولُونَ مِنْ بَحْرٍ إِلَى بَحْرٍ وَمِنَ الشِّمَالِ إِلَى الْمَشْرِقِ يَتَطَوَّحُونَ لِيَطْلُبُوا كَلِمَةَ الرَّبِّ فَلاَ يَجِدُونَهَا» (عاموس ٨: ١١ - ١٢).

إذن نستنتج الآتي:

١- هؤلاء الذين عانوا مثل هذا الجوع.

٢- الذين فقدوا نعمة الحياة في الفضيلة.

٣- الذين لم يكن لديهم أطعمة من السماء، من فوق.

هم الذين اضطروا إلى أن يُغيِّروا طريقة تفكيرهم، حيث اللهاث وراء السيئات، وإبعاد الذهن بطريقة ما عن الثبات على الدوام في الفضيلة، إذ ينحدر (الذهن) إلى نيةٍ وإرادةٍ أخرى لا تخضع لله، لكن لإرادة الشيطان.

يلجأ بعد ذلك القديس كيرلس للتفسير الرمزي أو الروحي، إذ يقول إن فرعون رئيس المصريين هو صورةٌ ومثالٌ لأبي الخطية وملكها -الشيطان- الذي هو أول مَن أدخلها إلى العالم.

الأمر الذي جلب الحزن لأبرام الطوباوى، من بداية وصوله في أرض مصر

يمكننا أن نعرفه بسهولة من الكتاب المقدس الذي يقول: «فَحَدَثَ لَمَّا دَخَلَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ رَأَوُا الْمَرْأَةَ أَنَّهَا حَسَنَةٌ جِدًّا. وَرَآهَا رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ وَمَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ فَأُخِذَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ» (تك ١٢: ١٤ - ١٥).للأسف كان على وشك أن يفقد امرأته.

يعود القديس كيرلس للتفسير الروحي مؤكداً على أن هذا يمكن أن يحدث لنا روحياً. كما أنه يحدث لهؤلاء الذين يتركون مسكنهم

وعالمهم المحبوب جداً، وهكذا فإنهم ينحدرون إلى السيئات، خاضعين لإرادة الشيطان والقوات المضادة الشريرة التي تحاصرهم بالخوف من كل جانب وبكل طريقة، هكذا يبتعدون عن الفضيلة.

أحياناً أخرى يجلبون للبشر ملذاتٍ أرضية ويشبعونهم من كثرة الرغبات العديمة النفع، كما حدث تماماً لأبرام الطوباوي مع رؤساء المصريين، الذين لاطفوه بكرمٍ مقدِّمين له الهدايا، قاصدين أن يبعدوا عنه الحزن العظيم، بسبب فقده رفيقة حياته، إذ أنه واضح جداً أن ما قدموه له كان بسبب سارة: «فَصَنَعَ إِلَى أَبْرَامَ خَيْراً بِسَبَبِهَا وَصَارَ لَهُ غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ وَأُتُنٌ وَجِمَالٌ» (تك ١٢: ١٦).

النتيجة التي وصل إليها القديس كيرلس هي أن الشيطان يغرينا بالأمور الوقتية، ويحرمنا من حرية الثمر والتجديد، وبقوته الشريرة وجشعه وإباحيته ووضاعته يغوي عقولنا ويخدعنا بالتمتع بالأرضيات. وقد وصل الشيطان لدرجة من الجنون حتى أنه جرَّب المسيح نفسه. لأنه يقول: «ثُمَّ أَصْعَدَهُ إِبْلِيسُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْمَسْكُونَةِ فِي لَحْظَةٍ مِنَ الزَّمَانِ. وَقَالَ لَهُ إِبْلِيسُ: «لَكَ أُعْطِي هَذَا السُّلْطَانَ كُلَّهُ وَمَجْدَهُنَّ لأَنَّهُ إِلَيَّ قَدْ دُفِعَ وَأَنَا أُعْطِيهِ لِمَنْ أُرِيدُ. فَإِنْ سَجَدْتَ أَمَامِي يَكُونُ لَكَ الْجَمِيعُ» (لو ٤: ٥ - ٧).

تدبير الله أمام سقوط الإنسان

يؤكد القديس كيرلس على أن نعمة الله لا تتخلَّى عن الذهن المصاب بالمرض جراء خداع الشيطان، لكنها تدافع عن ذاك الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه وتحرره. وهذا هو ما صار لأبي الآباء، أبرام. فعندما ضجَر البار، ولم يستطع أن يفعل شيئاً بالمرة، تدخل الله في

الوسط وحرّر سارة إمرأته؛ لأنه يقول: «فَضَرَبَ الرَّبُّ فِرْعَوْنَ وَبَيْتَهُ ضَرَبَاتٍ عَظِيمَةً بِسَبَبِ سَارَايَ امْرَأَةِ أَبْرَامَ» (تك ١٢: ١٧). وهكذا حَفِظَ فوراً زوجة البار من الإهانة. وبالمثل فإن الله وحده يستطيع أن يُحرر الذهن من قبضة الشيطان، بعد أن كان الشيطان قد صيّره أسيراً، ويرد الإنسان مرةً أخرى إلى كرامته ورتبته الأولى. لإن الله بمحبته للبشر، لا يتركنا نسقط في أيٍّ من هذه الأمور الشريرة.

ولكن نحن المُستعبَدون لشهواتنا، نثير غضب الرب التربوي علينا، بسبب وجود فكر ضعيف في داخلنا: «لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هَئَنَذَا جَاعِلٌ لِهَذَا الشَّعْبِ مَعْثَرَاتٍ فَيَعْثُرُ بِهَا الآبَاءُ وَالأَبْنَاءُ مَعاً. الْجَارُ وَصَاحِبُهُ يَبِيدَانِ» (إرميا ٦: ٢١). وبولس الحكيم أيضاً يقول: «وَكَمَا لَمْ يَسْتَحْسِنُوا أَنْ يُبْقُوا اللهَ فِي مَعْرِفَتِهِمْ أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ لِيَفْعَلُوا مَا لاَ يَلِيقُ» (رو ١: ٢٨). وهذا يقوله إشعياء العظيم بكل وضوح نائباً عن الإسرائيليين، أي الذين انزلقوا في خطاياهم: «هَا أَنْتَ سَخَطْتَ إِذْ أَخْطَأْنَا» (إش ٦٤: ٥).

إذن إن لم يشملنا عطف الرب، فلن يكُن أمام الخطية أيُ عائقٍ يمنعها عن تعذيبنا، وذلك بسبب ضعف طبيعتنا، مما يقود إلى سيادة الشر علينا.

ضرورة الناموس في هذه المرحلة

يقول القديس كيرلس: [إن ناموس الله يقود الإنسان المطيع إلى طريق الحياة بلا لوم، إذ يصير الناموس له نوراً، إذ يُظهر الأمور المثمرة والضرورية ويحفظه في التقوى......وكأنه يسكن في مدينة مقدسة، في ثبات الفضيلة وفي يقين التقوى. لكن من يُفضّل

حياة التهور، ويندفع إلى ملذات العالم ومسراته، وينغمس فيها بكل شهوته ومقدماً كل كيانه للشياطين، عندئذٍ تتركه العناية السماوية ويصير صيداً سهلاً لأولئك الذين يريدون اقتناصه......وتتركه العناية الإلهية، متحملاً الرحيل إلى بابل، أي بعيداً عن حدود المدينة المقدسة التي يمجّد فيها اسم الله. لذلك كل مَن عانى هذا المصير القاسي، كان يصرخ صرخات عظيمة، لأنه سقط في أيدي الأعداء. ولم يتحمل الحياة بالقرب منهم، إذ كانت حياة عبيد: «على أنهار بابل هناك جلسنا بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون» (مز ١٣٦: ١)][٥٧].

إمنع دوافع الشر

يؤكد لنا القديس كيرلس على أنه ينبغي أن تُمنَع بالحري دوافع الشر، وكل ما يؤدي إلى تلك العبودية المسيطرة، ونحاول أن نَصُدَّ في الحال كل هذه الأمور التي إن سقطنا فيها، فسوف تحاصرنا كل أنواع الشرور.

ولو لم يكن نير العبودية القاسي قد وُضع علينا كغضب (تربوي) من الله بسبب عصياننا، لمَا كان من السهل (في هذه الحالة) أن يكون لنا قدرة على المقاومة. وكان من المفيد لنا - ولو في ذاكرتنا فقط - أن نتساءل: ما هي الحالة التي كنّا عليها، وإلى أية حالة تحولنا، ولكننا سنحزن بمرارة لعدم تيقظنا وغياب المعونة السماوية «لأَنَّ الْحُزْنَ الَّذِي بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ يُنْشِئُ تَوْبَةً لِخَلاَصٍ بِلاَ نَدَامَةٍ، وَأَمَّا حُزْنُ الْعَالَمِ فَيُنْشِئُ مَوْتاً» (٢ كو ٧: ١٠).

٥٧ القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٤٨

الإختيار الحُر

عندما لا يكون الغضب الإلهي محلقاً فوقنا، ويكون لدينا إمكانية اختيار أن نفعل ما يروق لنا، وتكون لدينا أيضاً القدرة على الميل تجاه الاثنين، أقصد تجاه الشر وتجاه الصلاح بكل حرية تامة خلواً من القهر والاجبار، يجب علينا كما يشرح لنا القديس كيرلس الآتي:

١- أن نتحاشى بكل شجاعة حياة الترف كما يجب.

٢- أن يستمر رفضنا للملذات التي يغرينا بها الأعداء.

وبالتالى يمكننا أن نهرب من قبضة أولئك الذين يقولون إنهم رؤساء هذا العالم. أمَّا مَن يتمسك بأمور هذا العالم الحاضر، فسوف ينتهى حتماً إلى نهاية رديئة وسيئة.

كيف تتمكن منا قوى الشَّر؟

يؤكد القديس كيرلس على البُعد النسكي لحياتنا ويتحدث عن أسباب الوقوع في الشر، إذ يقول: [إن قوة الشر تتمكن منا بطريقتين: إمَّا بالملذات الخارجية، أو بالغرائز المغروسة فينا. المتساهلون مع الخطية مقتنعون بها من ذواتهم. أمَّا الذين تغويهم من الخارج، فإنهم ينقادون إلى المتعة فيُقبض عليهم منزلقين إلى أمور أكثر سوء. وعن ذلك يتحدث تلميذ المخلص حين يقول: «لأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ شَهْوَةَ الْجَسَدِ، وَشَهْوَةَ الْعُيُونِ، وَتَعَظُّمَ الْمَعِيشَةِ، لَيْسَ مِنَ الآبِ بَلْ مِنَ الْعَالَمِ» (١ يو ٢: ١٦)، ولأن شهوة الجسد هي شهوة فطرية ومتجذرة داخلنا ودائمة، لهذا فإن بولس العظيم يسميها «ناموس الخطية» (رو ٧: ٢٣)، الذي يسكن في أعضائنا. أمَّا شهوة العيون، فهي المباهج والملذات الخارجية وكل ما يُرى بالعين. أي أن الناس

تُعجب بالغنى الذي تراه بالعيون والملابس الحسنة والأشياء الأخرى التي يتمسك بها البعض، بسبب جلبها للسرور العظيم المزيَّف الذي يهتمون به اهتماماً كبيراً. لذلك فإن أوراق الكرمة والتين هي مثالٌ للمباهج الخارجية والمكتسبة والاستمتاع بكل الأشياء التي في العالم، وهى تعطي بطبيعتها دليلاً قاطعاً على أنها لذة وقتية وقصيرة الأجل. والأمر الذي يبدو حلواً، يصاحبه أمرٌ آخر يجلب عادةً ظلمةً للنفس. ذلك لأن الاستمتاع بالعالم -عموماً- يكون له مذاق وقتي حلو، لكنه يُخيِّم بظلامه المخيف وسطوته المُميتة على النفس التي تمارسه][٥٨]

.

الجوع مرة أخرى إلى الفضيلة : تذكر البُعد الأخروي

[قال بولس الرسول: «لأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ» (كو ٣:٣). لأننا متعطشون لكتابة أسمائنا في السماء، جاعلين وطننا ومدينتنا في السماوات، صارخين بقوة إلى الله: «لا تعاقبني لأني غريب في الأرض مثل كل آبائي» (أنظر مز ٣٨: ١٤ - ١٥). لأن هذا الذي يعيش هنا على الأرض، وله مدينة ذات بهاء في السموات، يبدو غريباً ونزيلاً بالنسبة لأهل العالم. لذلك فإن تلميذ المخلص، بطرس يعلِّمنا أن نسلك في هذا الأمر هكذا، إذ يقول لنا: «أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ كَغُرَبَاءَ وَنُزَلاَءَ أَنْ تَمْتَنِعُوا عَنِ الشَّهَوَاتِ الْجَسَدِيَّةِ الَّتِي تُحَارِبُ النَّفْسَ» (١ بط ٢: ١١)][٥٩].

فليتصاغر إذاً أمام عيوننا، الوطن والعشيرة والبيت العائلي والتكالب على الخيرات الأرضية

لقد دعانا مخلصنا نفسه أن نُظهر صلابةً مماثلةً قائلاً: «مَنْ أَحَبَّ

٥٨ القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٥١-٥٢

٥٩ القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٥٢-٥٣

أَباً أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي وَمَنْ أَحَبَّ ابْناً أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي. وَمَنْ لاَ يَأْخُذُ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعُنِي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي» (مت ١: ٣٧ - ٣٨)، ويضيف قائلاً: «وَكُلُّ مَنْ تَرَكَ بُيُوتاً أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَباً أَوْ أُمًّا أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَداً أَوْ حُقُولاً مِنْ أَجْلِ اسْمِي يَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ وَيَرِثُ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ» (مت ١٩:٢٩). هذا الأمر – كما يؤكد القديس كيرلس - هو نتيجة فاعلية قوة المسيح.

تدبير الخلاص

إن أولئك الذين يتبعون الله بكافة الطرق، واضعين الأمور الجسدية (في مرتبة ثانية) بعد الرجاء في المسيح، هؤلاء سوف ينالون التمتع بالنعم والبركات السماوية. لذلك يقول لابرآم؟ «سأجعلك أمة عظيمة وسأباركك» (تك ١٢:٢)، معطياً إياه كل ما يتعلق بهذا الوعد. **وهكذا فإن مَن أراد أن يتبع التعاليم الإلهية بإيمان ويكون مستحقاً للدعوة السماوية، متمتعاً بعناية الله الفائقة، فليخرج تماماً من حياة الملذات العالمية، كأنه يخرج مع كل عشيرته دون أن يترك أية بقية من الاهتمام الذي كان لديه من قبل. إذ بهذه الطريقة يكون هروبه هروباً حسناً، إذ قد دُعي من الله.** وكما كتب بولس الطوباوي، يمكنه أن يدرك، مع كل القديسين ما هو العرض والطول والعلو والعمق لسر المسيح. وعندئذٍ سوف يُسرع جداً نحو الأرض العالية المرتفعة، أي المؤسَّسة على الفضائل، إذ لا شيء يسقطها في محبة الجسد.

وعندما وصل أبرام إلى هذا المكان المرتفع، وجد كثير من الصالحات لأنه يقول: «وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ». فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ» (تك ١٢: ٧). ففي وطنه أُعطِيَ له الأمر النافع الوحيد، أنه يجب أن ينتقل إلى

أرضٍ أخرى، مهاجراً من وطنه. لكن عندما وصل إلى أرض كنعان ومعه كل عائلته واحتياجاته، وصعد إلى الأرض المقدسة، أُعطيت له نعمة الرؤية الإلهية وثقة الرجاء في الحرية الثابتة، ثم التصريح له بعد ذلك ببناء مذبح.

يطبق القديس كيرلس علينا هذه الأمور مؤكداً لنا أننا نحن أيضاً، وللسبب نفسه، لن تكون لنا أية نعمة من الله لو بقينا داخل العالم وفي ملذاته المقزِّزة. أمَّا عندما نُدعى من الله ونطيع الأوامر الإلهية، صاعدين كأنما إلى أرضٍ عاليةٍ، إلى الشوق والرغبة في كل صلاح، يضع الله داخلنا معرفة المجد ذاته الذي له، ويَعِدنا بالرجاء الثابت. هكذا هدف الكتب المقدسة هي تهيئة ذهننا لكي نستطيع أن نقدم ذبائح روحية (١ بط ٣:٥)، ونصير رائحة المسيح الذكية لله الآب بحسب المكتوب (٢ كو ٢:١٥)، وهكذا نقدم له جسدنا ذبيحةً حيةً ومرضية إلى الله، العبادة العقلية والروحية؛ لأنه يقبل بفرح كل صور عبادتنا الروحية معتبراً إياها ذبائح روحية (رو ١٢:١). هنا يبتعد تمامًا القديس كيرلس عن إنحصار دراسة الكتاب في البُعد المعلوماتي والثقافي وتحقيق النصوص لأن كل ما كُتب كُتب لأجل فائدتنا الروحية، طبعًا دون تهميش دور دراسة النص بكافة الوسائل لكن للوصول إلى هذا الهدف الروحي.

القراءة التفسيرية لقصة لوط

عند القديس كيرلس

لوط كنموذج لعناية الله بالقديسين

إن سكان سدوم وهم منجرفون بعنف جنوني نحو الملذات غير الطبيعية، أهانوا ناموس الجماع (التزاوج) الذي حددته الطبيعة كطريقة للإنجاب البنين، وصاروا منجذبين إلى جمال الصبيان. لقد جلبوا الغضب على أنفسهم، وبطريقةٍ ما، دفعوا الخالق ليُسرع في إدانتهم، بالرغم من كونه بالطبع محباً للبشر. وعندما جاءت اللحظة التي كان يجب فيها أن يعاقَبوا، بعدما صبر الله عليهم صبراً عظيماً، دخل إلى سدوم أولئك الذين كُلِّفوا أن يتمموا مهمة العقاب. إذ مكتوب: «فَجَاءَ الْمَلاَكَانِ إِلَى سَدُومَ مَسَاءً وَكَانَ لُوطٌ جَالِساً فِي بَابِ سَدُومَ. فَلَمَّا رَآهُمَا لُوطٌ قَامَ لاِسْتِقْبَالِهِمَا وَسَجَدَ بِوَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ. وَقَالَ: «يَا سَيِّدَيَّ مِيلاَ إِلَى بَيْتِ عَبْدِكُمَا وَبِيتَا وَاغْسِلاَ أَرْجُلَكُمَا ثُمَّ تُبَكِّرَانِ وَتَذْهَبَانِ فِي طَرِيقِكُمَا». فَقَالاَ: «لاَ بَلْ فِي السَّاحَةِ نَبِيتُ». فَأَلَحَّ عَلَيْهِمَا جِدًّا فَمَالاَ إِلَيْهِ وَدَخَلاَ بَيْتَهُ فَصَنَعَ لَهُمَا ضِيَافَةً وَخَبَزَ فَطِيراً فَأَكَلاَ» (تك ١٩: ١ - ٣). وهنا نجد أن لوطاً الذي كان قريباً لإبراهيم، وقد تغذّى بالنواميس السليمة، تمم - بغيرةٍ عظيمةٍ - واجب التقوى نحو الله، ومع أنه سكن في سدوم، كان بالنسبة لهم غريباً، فهو من حيث المولد من أُمٍّ أخرى، وهو أيضاً مختلفٌ عنهم من حيث أسلوب الحياة. وفق ما كُتبَ: «وَأَيَّةُ شَرِكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ الظُّلْمَةِ؟ وَأَيُّ اتِّفَاقٍ لِلْمَسِيحِ مَعَ بَلِيعَالَ؟ وَأَيُّ نَصِيبٍ لِلْمُؤْمِنِ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ؟» (٢ كو ٦: ١٤ - ١٥).

فضيلة إضافة الغرباء

السرد التاريخي:

لقد تغلب لوط على عيوب ذلك المكان الذي كانت تسرى فيه حياة العالم المعتادة، وأعطى مثالاً لحفظ ناموس إضافة الغرباء، إذ أكرم الكل، واستقبل وهو في مدخل المدينة أولئك الذين قَدِموا نحوه متيقناً أن الله سَيُسرّ بعمله هذا. إذاً عندما أتى الملاكان اللذان جاءا لعقاب أولئك الذين كانوا يمارسون الإباحية، خرج مسرعاً لاستقبالهم، معبِّرا بذلك بكل وضوح عن المودة التي بداخله، فسجد أمامهم حتى الأرض، ودعاهم للذهاب إلى البيت حتى يعتني بهما وفق نواميس المحبة. وعندما قالا له: «لاَ بَلْ فِي السَّاحَةِ نَبِيتُ»، أفصحا بهذا أنهما كانا غريبين بلا مأوى، وبهذا شجعا لوط على استضافتهما. أخذهما إذاً إلى بيته، وقدم لهما فطيراً وأعدّ مائدةً لكي يأكلا ويشربا. هذا بالتأكيد ما فعله البار، لكن أهل سدوم الذين طغت عليهم اللا إنسانية واللذة المقزِّزة، أخذوا يحومون - برغبات دنيئة - حول بيت البار، متجاوزين أقصى حدود الشر، إذا طلبوا السماح لهم بأن يفعلوا معهما حسب عاداتهم الشريرة. وبينما كان يجب أن يختاروا فضيلة محبة الغرباء، أرادوا أن يفعلوا بهما شراً بسفاهةٍ تتخطى الحدود الطبيعية. وإذ حاول لوط أن يثنيهم عن مقاصدهم البشعة، أرادوا أن يجردوه ويقتلوه فوراً، لولا أنه كان هناك مَن أنقذه. لأنه مكتوب: «فَقَالُوا: «ابْعُدْ إِلَى هُنَاكَ». ثُمَّ قَالُوا: «جَاءَ هَذَا الإِنْسَانُ لِيَتَغَرَّبَ وَهُوَ يَحْكُمُ حُكْماً. الآنَ نَفْعَلُ بِكَ شَرًّا أَكْثَرَ مِنْهُمَا». فَأَلَحُّوا عَلَى لُوطٍ جِدًّا وَتَقَدَّمُوا لِيُكَسِّرُوا الْبَابَ. فَمَدَّ الرَّجُلاَنِ أَيْدِيَهُمَا وَأَدْخَلاَ لُوطاً إِلَيْهِمَا إِلَى الْبَيْتِ وَأَغْلَقَا الْبَابَ. وَأَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ فَضَرَبَاهُمْ

بِالْعَمَى مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ فَعَجِزُوا عَنْ أَنْ يَجِدُوا الْبَابَ» (تك ١٩: ٩ - ١١). غير أن مساعدتهما له لم تقتصر فقط على هذا؛ لأنه مكتوب بعد ذلك: «وَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلاَكَانِ يُعَجِّلاَنِ لُوطاً قَائِلَيْنِ: «قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلَّا تَهْلَكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ». وَلَمَّا تَوَانَى أَمْسَكَ الرَّجُلاَنِ بِيَدِهِ وَبِيَدِ امْرَأَتِهِ وَبِيَدِ ابْنَتَيْهِ لِشَفَقَةِ الرَّبِّ عَلَيْهِ وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ» (تك ١٩: ١٥ - ١٦).

التفسير الروحي من جانب القديس كيرلس كان الآتي:

ما حدث هو دليل واضح جداً لنا، إذ أن الله لا يشجعنا بالكلام فقط. وعندما نتوسل إليه لكي نتجنب الخطية، فإن مخلص الجميع يصل إلى هذه الدرجة من الجود والطيبة والكرم تجاهنا، لدرجة أنه يُعطينا يده الممدودة إلينا حسب ما تقول الآية: «ولكنى دائماً معك. أمسكت بيدي اليُمنى» (مز ٧٣:٢٣).

إذن بسبب أن الطبيعة الإنسانية ليست قوية بالكفاية، ولا تملك قدرات كافية تمكِّنها من أن تتجنب الشر، فقد صار الله شريكاً معها في الجهاد. ونرى أنه يمنحنا نعمةً مزدوجةً، فيحاول أن يقنع النفس بالشرائع، ويمهد لها الطرق التي تساعدها، مانحاً إياها أيضاً المقدرة على الانتصار على الشر الذي يعطلها ويميتها. هنا نرى محبة الله تجاهنا نحن البشر والتي يؤكد عليها القديس كيرلس، إذ يقول: إن الله يشفق علينا، والملائكة والقديسون يُسرعون نحونا. وسوف نتخلص من شهواتنا الدنيئة، وسوف ننجح ولن نقع أسرى لانتقام الأشرار بأية حال من الأحوال، إذ نؤمن بالله الذي ينادى بفم نبيه: «لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ الْمُمْسِكُ بِيَمِينِكَ الْقَائِلُ لَكَ: لاَ تَخَفْ. أَنَا أُعِينُكَ». لاَ تَخَفْ يَا دُودَةَ يَعْقُوبَ يَا شِرْذِمَةَ إِسْرَائِيلَ. أَنَا أُعِينُكَ يَقُولُ الرَّبُّ وَفَادِيكَ قُدُّوسُ إِسْرَائِيلَ» (أش ٤١: ١٣ - ١٤).

الملائكة هم مثال لله

إن الله ضابط الكل هو معين القديسين، ومن الممكن ـ كما يشرح القديس كيرلس ـ اعتبار الملائكة مثالاً لله. فأولئك الذين اقتربوا من إبراهيم قديماً عند بلوطات ممرا كانوا ثلاثة، واللذان زارا سدوم كانا اثنين. ومن كلام المخلص نفسه نعلم أن «الآب لا يدين أحداً»، بل «أعطى كل الدينونة إلى الابن»، فواضح أن الابن كائنٌ مع الآب، ومن الطبيعى أن الروح القدس كائنٌ معهما.

أهرب لحياتك : أحفظ نفسك طاهراً

مكتوب أنه «وَكَانَ لَمَّا أَخْرَجَاهُمْ إِلَى خَارِجٍ أَنَّهُ قَالَ: «اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ. لاَ تَنْظُرْ إِلَى وَرَائِكَ وَلاَ تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ. اهْرُبْ إِلَى الْجَبَلِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ» (تك ١٩:١٧). عندما يقول الكتاب: «اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ»، فإنه يقصد على ما أعتقد، تماماً هذا الذي يقال: « احْفَظْ نَفْسَكَ طَاهِراً وَلاَ تَشْتَرِكْ فِي خَطَايَا الآخَرِينَ» (١ تيمو ٥:٢٢). وانتصر على كل معوقات العالم لأنه ولا كل العالم يمكن أن يُعطى بدلاً عن النفس؛ «لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟» (مت ١٦:٢٦). هذا، وما يقال إن خطواتنا يجب ألّا ترجع إلى الوراء، ربما يعني أن لا نرجع إلى الدناءة وألّا يكون لنا فكر أولئك الذين سيُدانون بالنار، بسبب ضعفهم في ضبط النفس، لأنه يقول: «لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْمِحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَاءِ يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ اللهِ» (لو ٩:٦٢). بحسب القديس كيرلس، يجب أن نُصِرّ على السلوك في طريق الخلاص، ولا ننشغل بأي شيء آخر بإرادتنا، ولا يتملكنا عقلٌ هوائيٌّ مندفعٌ نحو شهوات عالمية خيالية تافهة، بل عقلٌ راجحٌ

متيقظٌ يهتم دائماً بالنظر إلى الأمام. وأقول ما هو أعظم، لم يقل له الملاك يجب أن تسير دون أن تلتفت للوراء فقط، لكنه أضاف نصيحة مفيدة بقوله: «لاَ تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ. اهْرُبْ إِلَى الْجَبَلِ لِئَلَّا تَهْلِكَ». هكذا كما عودنا القديس كيرلس، نقرأ الكتاب لكي تنكشف ذواتنا أمام نور كلمة الله.

حرية الاختيار ومصير الإنسان

تقول الكلمة النبوية: «مَلْعُونٌ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلَ الرَّبِّ بِرِخَاوة» (إرميا ٤٨:١٠). ويقول بولس العظيم في موضع ما: «أركضوا لكي تنالوا» (١ كو ٩:٢٤).

إن الأمر يتوقف علينا ـ كما يؤكد القديس كيرلس ـ فكوننا لا نريد أن نُظهر بأساً شديداً، أو أن نكون غير مهتمين بالابتعاد عن السيئات، وكون أن العقل لا يريد أن ينقطع عن الأشياء العتيقة، كل هذا لا يعني شيئاً آخر سوى أن الشخص يتوقف بإرادته في دائرة الشر، في الوقت الذي كان يجب عليه فيه أن يخرج مُسرعاً. وهناك أمرٌ آخر يمكن أن يحدث، وهو أنه قبل أن نخرج من دائرة الشر، وبينما نحن نفكر فيما نفعله بخصوص خروجنا من هذه الدائرة، فإننا نؤجِّل خروجنا هذا، وبذلك نسبب لأنفسنا الإدانة، إذ أننا لم نُطهِّر أنفسنا، ولم نتطهَّر من التلوث الذي أصاب نفوسنا بسبب رخاوتنا القديمة، ولم نُلقِ عن كاهلنا انحلالنا وثقل جرائمنا، ولم ندخل تحت النير الخلاصي لكي يريحنا المسيح.

إذن ـ كما يشرح القديس كيرلس ـ نصيحة «لا تقف في أي مكان في الدائرة» هي نصيحةٌ حسنةٌ جداً، وهى تعني ألَّا تبقى في

أية حالة دنيئة، أو أي موقف يجعلك أسيراً، لكن بالحري اصعد إلى حياة فائقة مشرقة، وكأنك صاعدٌ إلى جبل عالٍ، فتلك الحياة ليس بها أية وضاعة، بل تتميز بالفضائل السامية والفائقة، وبهذا تتخلص من السلوك المشين، أي الأرضي والجسدي. لأنه يقول: «أقوياء الله يرتفعون في الأعالي عن تدبير الذين على الأرض» (مز ٤٦: ١٠). لأن السلوك اللائق بالقديسين هو سلوكٌ سامٍ جداً عن الأرضيات «النسور تطير في الأعالي» (أيوب ٣٨: ٤). وبحسب المكتوب، فإن حياتهم تنمو، وكأنها على «الجبل» في السماء، ويعتبرون وطنهم السماوي مِلكاً لهم. ويكتب أيضاً بولس في موضع ما «أطلبوا السماويات وليس الأرضيات» (أنظر كو ٣: ٢).

إن كلمة «الجبل» إنما تعبِّر عن حياة القداسة، والارتقاء نحو سماويات الحياة العظيمة، بينما كلمة «أسفل» تعني طريقة الحياة الغير الطاهرة التي تميل إلى الخطية والأمور الأرضية[٦٠].

الوصول إلى الكمال يمر بكثير من المتاعب[٦١]

بحسب القديس كيرلس، إن المرء لن يسلك بسهولة إلى المدينة الفاضلة، ولن يبتعد عن الشهوات التي قد تعوّد عليها، لكنه سوف يبتعد عن كل هذا بهدوء حسب استعداده ورغبته في حياة أفضل. لن يكون بعيداً أو أعلى كثيراً، بل سيكون كما لو كان قد وُجد في أرض أخرى، في حياة تستحق بالتأكيد المدح والثناء، لكنه لم يصل بعد إلى مجدٍ أسمى وأبهى، وذلك كما تُرفع النفوس بالتربية بحسب الناموس، إلى مبادئ حسنة وحياة صالحة؟ لأنه مكتوب: «بداية

٦٠ أنظر القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٦٠

٦١ أنظر القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٦١-٦٣

طريق الصلاح هي فعل البر» (أم ١٦:٧). أي أن الذين يرغبون المعرفة ويشتهون الرؤية السرية، تلائمهم كلمة الوعظ في البدايات، بينما أولئك الذين قطعوا شوطاً أكبر إلى «الإنسان» الناضج وإلى الكمال حيث المسيح هو مقياس له (أنظر أفسس ٤:١٣)، فيناسبهم كثيراً الطعام القوى، أي الكلام عن الأسمى، وبعد ذلك طريق معرفة الإلهيات. هكذا، فالبار لوط يمكن أن يكون مثالاً لهؤلاء الذين في هذه الحالة، والذين لم يجدوا لهم مأوى يناسبهم، في الجبل مباشرةً، ولكن في المدينة الصغيرة صوغر.

إذن فقد سمح لهم الملاك الطوباوي أن ينزلوا إلى صوغر. لأنه يقول تعجبت حقيقةً لشجاعتك ولكلمتك هذه، لن أدمر المدينة التي تكلمت عنها معي، أسرع إذاً لتخلص هناك (أنظر تك ١٩: ٢١ ـ ٢٣).

إن الله يسمح ـ بسبب محبته للبشر ـ بأن يعمل المرء في البداية ما يناسب قدرته. فالله يسمح بخلاص هؤلاء الذين مازالوا يبحثون عن الفضيلة، ومع ذلك لم يبتعدوا تماماً عن الحياة المثقلة بالهموم. إن الوصول إلى هذه الدرجة وهذه الحالة، لا يتحقق بدون النور الإلهي وضياء المصابيح السماوية؛ لأنه يقول: «أشرقت الشمس ولوط دخل إلى صوغر».

امرأة لوط كنموذج للذهن الضعيف

إن لوط العظيم دخل بسرعة إلى المدينة الصغيرة بإذن من الله. وفي فعله هذا أظهر أن المرأة التي تبعته في الرحيل كانت ضعيفة، لأنه يقول: «وَنَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ!» (تك ١٩:٢٦). إننا نرى أن القديس كيرلس لا يتوقف كثيراً عند الفهم الحرفي والتاريخي

للنص بل يمضي تجاه الرسالة الروحية المستترة خلف النص:

إن العقل الشجاع والسلوك الطيب ـ حتى وإن لم يصل إلى الكمال الذي يُسر به الله ـ يبدأ في تحقيق النجاح في طريق الفضيلة، إلى أن يبتعد تماماً عن الشهوات سائراً نحو الأفضل. أمَّا العقل الضعيف الواهن الذي ترمز إليه هذه المرأة، فإنه بخضوعه المستمر للأفكار الدنيئة ينتهي الحال به إلى الفساد. وهذا بحسب القديس كيرلس، ما يقصده هنا بأنها قد صارت عمود ملح. وهذا يمكن أن يرمز أيضاً للنفس التي بلا حياة، وللعقل الذي يميل للسقوط في الحماقة، والذي قد يصل إلى قمة البلادة. فالملح إذا فسد لا يكون له أية صلاحية، فقد قال المخلص إنه لا يصلح مطلقاً بل يُلقى خارجاً ويداس من الناس (أنظر مت ١٣:٥). المرأة تحجَّرت إذاً. غير أن لوط لم يكتفِ بهذا إذ يقول الكتاب: «وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ وَابْنَتَاهُ مَعَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ» (تك ١٩ :٣٠). إن العقل يتقدم بالتدريج نحو الكمال، ويُرفع ببطء إلى مستوى أرقى، ويتقدم ويسمو إلى الأفضل، مستنداً على النضج والسمو الروحى، مثلما فعلت ابنتاه، حيث تركتا الميل لحب الجسديات والرخاوة التي يُرمز لها بامرأة لوط. ويسكن لوط بعد ذلك كما في جبل ومغارة[٦٢].

رمزية الجبل والمغارة

يستمر القديس كيرلس في التفسير الروحي معتبرا أن للجبل والمغارة دلالات واضحة جداً، فالجبل، يشير إلى العظمة وسمو القوة الروحية، بينما المغارة تشير إلى الثبات والاستقرار في الفضيلة.

٦٢ أنظر القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٦٣

لأنه مكتوب عن الرجال الصالحين ما يأتي: «السَّالِكُ بِالْحَقِّ وَالْمُتَكَلِّمُ بِالاِسْتِقَامَةِ الرَّاذِلُ مَكْسَبَ الْمَظَالِمِ النَّافِضُ يَدَيْهِ مِنْ قَبْضِ الرَّشْوَةِ الَّذِي يَسُدُّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَمْعِ الدِّمَاءِ وَيُغَمِّضُ عَيْنَيْهِ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الشَّرِّ. هُوَ فِي الأَعَالِي يَسْكُنُ. حُصُونُ الصُّخُورِ مَلْجَأُهُ. يُعْطَى خُبْزَهُ وَمِيَاهُهُ مَأْمُونَةٌ» (أش ٣٣: ١٥ - ١٦). ويمكننا أن نفسر هذا الكلام بطريقة أخرى، بمعنى أن الصخرة هي المسيح، بسبب أن طبيعته الإلهية تقوِّم طبيعتنا، فهو كلِّي القدرة وغير قابل للتغيير. بينما الحصن يمكن أن يُفسر روحياً ويعني الكنيسة، إذ هي غطاءٌ للأنقياء حيث يسكن الأبرار والذين يخافون دينونة النار[٦٣].

نزوح ابرآم وخروج الإسرائيليين نموذجان للارتقاء نحو الفضيلة

١- إن ابرآم العظيم الذي كان يعاني من الجوع غير المحتمل، ومن غياب ضروريات الحياة في ذلك الوقت، لم ينزل بإرادته، لكنه فعل ذلك مضطراً أمام هذه الضروريات، وبينما كان في ضيافة أُمةٍ أخرى، فعل به فرعون شراً، بظلم وألم، إذ أراد فرعون أن يفتن امرأة إبراهيم لتسقط في شهوة الأعمال الدنيئة، مشتعلاً بمحبة اللذة المنحلة. لكن الله لم يسمح بذلك. لأنه مكتوب: «فَضَرَبَ الرَّبُّ فِرْعَوْنَ وَبَيْتَهُ ضَرَبَاتٍ عَظِيمَةً بِسَبَبِ سَارَايَ امْرَأَةِ أَبْرَامَ» (تك ١٢: ١٧).

إن فرعون هو مثالٌ ورمزٌ للاندفاع الشيطاني الذي كان لديه هدفٌ شريرٌ ويسعى لتنفيذه بكل الطرق. فهو (أي الشيطان) يلقي بذاره الشريرة في نفوس القديسين، حتى يجنوا كل الثمار المشتهاة وما تجلبه عليهم لذاتهم -هكذا أهوال الخطية تتحقق بطرق كثيرة- فيقبض الشيطان على كل واحد ويخضعه رغم إرادته إلى مقاصده الشريرة.

---

[٦٣] أنظر القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٦٤

إن الطبيعة البشرية مصابةٌ بعِلة الضعف، لكن الله لا يسمح بهذا، بل هو يبطل كل حيل ودسائس الشرير التي يصنعها ضد القديسين. وهكذا أبطل الله مكائد الشيطان عن ابرآم، وتجنب بذلك الإهانات الشيطانية؛ إذ في رجوعه من مصر (برهن على أنه قديس) وذهب إلى المكان الذي أعطاه له الرب وأسند له فيه أعمالاً هامة. لأن الكتاب يقول: «فَصَعِدَ أَبْرَامُ مِنْ مِصْرَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ وَلُوطٌ مَعَهُ إِلَى الْجَنُوبِ. وَكَانَ أَبْرَامُ غَنِيًّا جِدًّا فِي الْمَوَاشِي وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ. وَسَارَ فِي رِحْلاَتِهِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى بَيْتِ إِيلَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ خَيْمَتُهُ فِيهِ فِي الْبَدَاءَةِ بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايَ. إِلَى مَكَانِ الْمَذْبَحِ الَّذِي عَمِلَهُ هُنَاكَ أَوَّلاً. وَدَعَا هُنَاكَ أَبْرَامُ بِاسْمِ الرَّبِّ» (تك ١٣: ١ - ٤).

مِن الضروري لمَنْ يهرب من شهوات العالم إلى الحياة المقدسة، أن يأخذ معه كل ما له لأنه بكل العائلة والأهل رحل عن مصر أبو الآباء ابرآم. أي يجب بكل الطرق أن يبتعد المرء بإرادته مع كل عائلته وينتقل إلى الصحراء، أي إلى حالة روحية طاهرة بدون مضايقات، ينتقل إلى تلك الحالة التي كانت فيها الطبيعة البشرية منذ البداية قبل سقوطها، وأُغلق عليها لتُحرم من الخيرات السماوية، فاتجهت نحو الشر. هذا يمكن أن يُفسَّر رمزياً بنزول ابرآم إلى أمم أخرى، أي نزوله من الأرض والخيمة الأولى المحبوبة جداً، حيث كان المذبح. وهكذا في المسيرة الدائمة إلى الأمام، إلى أن نصل إلى أرض وموضع المذبح الذي تعيَّن في البداية، أي إلى حالة القداسة الأولى، وهناك نتضرع إلى إله الكل، مكررين كلمة النبي: «يا رب نحن لا نعرف آخر سواك. أسمك القدوس هو الذي دُعي علينا»([٦٤]).

[٦٤] ليس هناك نصّ ينسب لأحد الأنبياء في العهد القديم بهذا الترتيب، ولكن درج الآباء على استخدام عناصر مختلفة من نصوص متعددة وجمعها معاً كما لو كانت تشكل نصاً واحداً. ويظهر هذا المنهج جلياً في الصلوات الليتورجيات كما في أوشية السلامة الكبيرة: "يا ملك السلام أعطنا

٢- لو فحصت جيداً كل ما صار لأبناء إسرائيل عبر الزمان، عندما استحوذ المصريون على هؤلاء المنحدرين من نسل القديسين الأحرار، بسبب معاناتهم من الجوع في البداية، لوجدت أنهم وضعوهم تحت نير العبودية المُرة، متعاملين معهم بوحشية، إذ يصف هذه القسوة هكذا: «ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. فَقَالَ لِشَعْبِهِ: «هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلاَّ يَنْمُوا فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ» (خر ١: ٨ - ١٠). لقد تضايق -على ما اعتقد- رئيس مصر، من أن أولئك الذين وُضِعت عليهم قيودٌ إجبارية، قد اختاروا طريق الحرية، (لذلك تقرأ): «فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ فَبَنُوا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنَ: فِيثُومَ وَرَعَمْسِيسَ» (خر ١:١١). فتحمل بنو إسرائيل نتائج إفراط المصريين في حب الاستعباد: من عذابات لا تنتهي في عمل الطوب، وقطع الأحجار، وبناء مدن بحوائط وأبراج، واستصلاح الأراضي، وعرق متواصل في إنهاء عمل بعد آخر، وكل هذا كان يتم بدون أجر؛ إذ كان رؤساء

سلامك. لأن كل شيء قد أعطيتنا أقتننا لك يا الله لأننا لانعرف آخر سواك. أسمك القدوس هو الذي نقوله، فلتحيا نفوسنا بروحك القدوس“، فهذا النص الليتورجي يُدمج معاً عناصر من نصوص أش ٢٦: ١٢، يو ١٤: ٢٧، هو ١٣: ٤، أش ٤٥: ٥، ٦، ٢١، ٢٢، ١كو ٨: ٤ - ٦ (راجع في ذلك كتاب الخولاجي المقدس: كتاب الثلاثة القداسات). ويبدو هنا أن القديس كيرلس قد اقتبس هذا النص من الليتورجية. ومن الجدير بالذكر أن هذا المنهج يظهر أيضاً في المزمور الذي يُقرأ قبل إنجيل القداس، فهناك بعضٌ من هذه المزامير تحتوي أيات لا تلتزم بالترتيب التتابعي للأعداد كما وردت في نص المزمور، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أن مزمور إنجيل قداس يوم الخميسِ من الأسبوع الأول مِن الصوم الكبير يتكون من المزمور ١١٧، الأعداد ١٣، ١٨. وأحياناً تستخدم القراءة أعداداً من مزامير متعددة، بحيث تبدو وكأنها نصاً واحداً، ومثال ذلك مزمور باكر يوم الاثنين من الأسبوع الرابع من الصوم الكبير، فهو يتكون من مزمور ٥٤: ١، ومزمور ٢٦: ١١، وهذا يبين مدى الحرية التي كانت للآباء في استخدام نصوص الكتاب المقدس بحيث تصل الرسالة المطلوبة واضحة جلية، دون التقيد بحرفيه النص، ودون أن يعني ذلك اختراع نصوص جديدة تخرج عن الخط العام للكتاب، بحيث تؤدي رسالة مغايرة. من ذلك يتبين لنا أن هذا النهج يعبِّر عن حرفية فنية تلتزِم الحق المعلن في الكتاب، في الوقت الذي تسمح فيه بحرية الاقتباس، دون أن يعني ذلك افتئاتاً على النص.

تلك العصور يُخضِعون هذه النفوس المقهورة بأعمال الطين والحجارة من مبانٍ وأسوار، لقد عذَّبوهم بإجبارهم على ذلك في عبودية مُرة وبدون مقابل (لأنه هكذا تكون أعمال الجسد وكل ما يتصل به)، أجبروهم إذن على قبول حياة قاسية ومليئة بالعناء، والتي لا تُقدم بأية حال أيَّ نفعٍ للمرغمين على ممارستها.

حقيقةً، ماذا تنفعنا الأعمال الجسدية وشهوات نفوسنا الضعيفة؟ إن فعلنا هذا، فسوف نعطي مكاسب لإبليس والشياطين، إذ يكون لهم غنى وفخر، مثلما كان لفرعون تماماً، الذي اِعتقد أنه مجدٌ عظيمٌ له أن يبني الإسرائيليون المدن بدون أجر أو قوت، وفى هذا كانوا مجبرين على تحمل هذه الحالة.

إن مشقة الإسرائيليين تمثل الصورة الواضحة المتكررة لأطماعنا الباطلة الدنسة هنا على الأرض، كما أن الشيطان وقواته الشريرة يمارسون ضغوطاً وهجوماً علينا. لكن الله أظهر حينذاك رحمته لهؤلاء الذين أصابهم شرٌّ بواسطة مقاصد المصريين الشريرة، لأن الله أعد موسى العظيم ليكون خادماً لإحسانه نحوهم.

إن الله يفعل نفس الشيء معنا، لأنه بينما ننزلق في الخطايا، يمنحنا من مراحمه، ويُدخل في قلوبنا جميعاً ناموسه الخاص، كوسيط يرفعنا إلى حياة الحرية[٦٥].

العيد الحقيقي

لقد كُتب الآتي: «وَبَعْدَ ذَلِكَ دَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ وَقَالاَ لِفِرْعَوْنَ: «هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيُعَيِّدُوا لِي فِي الْبَرِّيَّةِ».

٦٥ أنظر القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٦٤- ٦٧

فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ؟ لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ وَإِسْرَائِيلَ لاَ أُطْلِقُهُ» (خر ٥: ١ - ٢). وهؤلاء أيضاً الذين كانوا مع موسى وهارون أكَّدوا أن الإسرائيليين يجب أن يرحلوا عن مملكة وأرض مصر؛ لأن الله دعاهم إلى عيدٍ. **لأنه في الحقيقة هو عيدٌ حقيقي أن ينحل ثقل العبودية المُرة ويُوجد المرء في حضور الله، ويتمم كل ما يفرحه دون أن يُستعبَد من أحد، أي بدون أن يجبره أحد على فعل شيء.** لقد تفوَّه فرعون بثرثرة شديدة وأظهر وقاحة عظيمةً منكراً مجد الرب، قائلاً: إنه لا يعرف الرب وأنه لن يُطلق الإسرائيليين. ولكن موسى العظيم لم يستسلم بتاتاً، بل أصرَّ على أن يحقق الأمر الذي يُسرّ به الله، بمعنى أنه عندما يعوِّق (فرعون) خروج أولئك الذين سقطوا تحت سطوته، إلى الحرية، فهؤلاء يجب عليهم أن يُظهروا رجولةً وأن ينتصروا على كل شيء وبدون تأخير، أو على الأقل بدون أدنى خوف. بل ويصرِّون قائلين: «إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدِ الْتَقَانَا فَنَذْهَبُ سَفَرَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا لِئَلاَّ يُصِيبَنَا بِالْوَبَإِ أَوْ بِالسَّيْفِ» (خر ٥: ٣)، هكذا صرخ موسى الحكيم: نحن -العبرانيون- لا نشبهكم أيها المصريون في توقيركم للعجول والخنازير أو الماعز أو منحوتات الإنسان أو أشكال الطيور والزواحف التي تضعونها على المذابح. نحن دعانا الله ربنا الذي أبدع هذا الكون. إنه العظيم الذي لا يُحصى مع إله المصريين وهو فوق كل خليقة. إنه إله العبرانيين الذي يدعونا إلى الصحراء، لكي نقدم هناك الذبيحة التي تسره. وهكذا أظلمت مصر روحياً[٦٦].

٦٦ أنظر القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٦٧-٧١

التفسير الروحي لخروج بني إسرائيل

ويجب علينا نحن الروحيون أن نفهم روحياً - كما يشرح لنا القديس كيرلس - كل ما أُعطي لنا بتعاليم وأمثلة. يجب إذن أن نهرب من كل شيء يسبب لنا ظلمةً، وهكذا نكون قد خرجنا من أرضٍ ما. نهرب من سطوة الخطية التي تتسلط علينا بواسطة الطاغية، الذي هو الشيطان، ولنسرع نهائياً نحو حياة الحرية والطهارة ونسلك في طريق الحياة حسب الناموس الإلهى، تلك الحياة التي لا تخضع للشياطين. لأنه يمكننا عندئذٍ أن نقدم ثمار تبريرنا -كذبيحةٍ- إلى الله. ويؤكد موسى أنه يجب على الإسرائيليين السير ثلاثة أيام داخل الصحراء، مُعلناً بهذا أنه يجب ألَّا يكون المرء قريباً من دائرة الدناءة والحياة المليئة بالقهر. وقد استخدم موسى العظيم أسلوباً فنياً حكيماً عندما قال إنه يجب على المدعوين من الله أن يبتعدوا عن الظلمة، ويورد لهذا سبباً حسناً جداً لأنه يقول: ربما يقابلنا الموت أو القتل أو «لِئَلاَّ يُصِيبَنَا بِالْوَبَإِ أَوْ بِالسَّيْفِ» (خر ٥:٣).

يشرح لنا القديس كيرلس البُعد التاريخي للنص[٦٧] لكي يصل إلى المعنى الروحي الصحيح، قائلاً : هناك عادةٌ عند العبرانيين، مازالت أيضاً عند أولئك الذين يسجدون للأصنام، فكل مَن يدخل إلى الهيكل يجب أن يتجنب المرور بجانب جسد ميت. لأنهم يقولون إن المرء يتنجس جداً ليس فقط باللمس، ولكن أيضاً بمجرد النظر لجسد ميت. فإن حدث هذا، فبسبب تلك العادات يعتقدون أن ذبائحهم لن تكون طاهرة، أي عندما يقدِّمون ذبيحة، ويتصادف وجود مشهد ميت أو قتيل، لأن موسى قال: أنتم (المصريون) لديكم مقدسات وهياكل بأبواب وأقفال، يمكنكم

[٦٧] أنظر القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٧١-٧٣

الدخول إليها وتقديم ذبائحكم فيها حسب معتقداتكم الخاصة بكم، بينما نحن (العبرانيون) مجبرون أن نُقدم ذبائحنا في أماكن مكشوفة في وسط المدينة، وفي تقاطع الطرق، وبين الحقول، ونتنجس بمشاهد الموتى، إذ لا يوجد ما يحجب إطلاقاً عنا هذه المشاهد.

إن ما جاء في التاريخ المقدس بخصوص عادات المصريين هو أمر مؤكد، وإن ما قاله موسى الحكيم هو صواب ويمكن لنا نحن أيضاً - كما يؤكد القديس كيرلس - أن نفهمه روحياً. أي يجب علينا نحن أن نقدم ذبائحنا كما في صحراء ونتمم عيداً مقدساً لله، مرتحلين من أرض المصريين، متجنبين رؤية مشاهد الموت. لأنه بذهن هادئ مبتعد عن الظلمات العالمية، وبأعين متجنبة لرؤية كل ما هو ميت وفاسد، نقدِّم ذبيحةً طاهرةً إلى الله ضابط الكل. فالأعمال الميتة هي أعمال الجسد، بينما الظلمة العالمية هي الغشاوة التي يسببها الأشرار، والزيغان الباطل، والأمور التي تلوث شفافية الذهن النقي. هذه الأمور يجب الابتعاد عنها ممن يريدون أن يعبدوا الله بالحق. والتاريخ المقدس شاهدٌ على كل هذا.

لقد استحوذ على الإسرائيليين الشوق الشديد الذي لا مفر منه لحريتهم الأولى. ولأنهم أعلنوا نيتهم هذه أمام فرعون، فقد أثاروه بإلحاح مما أثار غضبه، وهو الذي قيَّدهم في نير العبودية. ولأنه رأى أن هذه الاشتياقات كانت نتيجة لتكاسلهم وعدم انشغالهم بعمل، فلهذا أمر بأن يُثقَّل عليهم في العمل. وبالرغم من مطالبتهم بتكميل أعمالهم المعتادة دون تأجيل، منع عنهم على غير العادة حصة التبن اللازمة لعمل الطوب اللبن لأنه قال لهم: «مُتَكَاسِلُونَ أَنْتُمْ مُتَكَاسِلُونَ. لِذَلِكَ تَقُولُونَ: نَذْهَبُ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ. فَالآنَ اذْهَبُوا اعْمَلُوا. وَتِبْنٌ لاَ يُعْطَى لَكُمْ

وَمِقْدَارَ اللِّبْنِ تُقَدِّمُونَهُ». فَرَأَى مُدَبِّرُو بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْفُسَهُمْ فِي بَلِيَّةٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ لاَ تُنَقِّصُوا مِنْ لِبْنِكُمْ أَمْرَ كُلِّ يَوْمٍ بِيَوْمِهِ» (خر ٥: ١٧ - ١٩).

أليس حقيقاً -عندما يريد أي شخص منا أن يتحرر من ثقل عبودية الشيطان بعبادة الله المشرقة والبهية، في سكينة القلب، ويعرف الرب الحقيقي وفق كلمات المزمور: «تخلَّصوا من كل زيغان واعلموا أني أنا هو الرب الإله» (مز ٤٥: ١١)- أن يشتكي علينا عدو الجميع بأننا لا نعمل معه بجد، معتبراً أن ما تشتهيه قلوبنا أمرٌ لا يناسبه؟ وهل هناك شك في أنه سيثور علينا مع كل الأرواح الشريرة والنجسة، ويحاول أن يجبرنا بقوة على الانزلاق المستمر في النجاسة الجسدية وأمور العالم الأرضية، التي كان كل واحد معتاداً أن يمارسها؟ وعندما نحاول الابتعاد عن الأمور الوضيعة، ألا يعيق هذه المحاولة بشتى الطرق ويُزيِّن لنا طريق الشر حتى تتمتع نفوسنا به؟ إن هذا هو ما كان يُقصَد به - كما شرح القديس كيرلس - أن يُطلَب من العبرانيين صناعة الطوب بلا توقف، ومن ناحية أخرى يمنع عنهم التبن اللازم لهذه الصناعة. وهذا ينطبق علينا نحن أيضاً، إذ نطلب دائماً الأمور التي قد تعودنا عليها ونشتهيها، ونتحرق شوقاً لها، وبالأكثر عندما نتبين أن هناك أمراً يعوق تحقيق ما نرغبه. وعندما يُبعِد الناموس الإلهي أذهاننا البشرية عن فعل ما تعودنا عليه من سيئات، عندئذٍ يستيقظ داخلنا شوقٌ مستمر نحو هذه العادات، منتهياً بنا إلى الشكوى ضد مشرع هذا الناموس.

والبرهان هو ما حدث لبني إسرائيل الذين كانوا يعانون من أعمال قاسية فُرِضت عليهم، في الوقت الذي حُرموا فيه من التبن. ولهذا اشتكوا على موسى وهارون بشدة متهمين إياهما بأنهما السبب فيما يعانون من ضيق بسبب المتسلطين عليهم. في حين أن هذا لم يكن

بسببٍ آخر سوى أن موسى وهارون كان لديهما رغبةٌ قوية في تحرير الشعب، وكانا يصدقان دائماً وعود فرعون بذلك.

شهوة الصلاح والفكر الخيِّر قد تدفعنا إلى ما يرضي الله، وفي نفس الوقت نتذكر ناموس التقوى. غير أنه من جانبٍ آخر، فإنه من المحزن أن نعرف أن عدو الخير بسبب طبيعته الشريرة، يريد دائماً أن يحطِّمنا. غير أن الرب يتدخل دائماً لإنقاذنا. إذ قال لموسى: «لِذَلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَا الرَّبُّ. وَأَنَا أُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَبِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ. وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْباً وَأَكُونُ لَكُمْ إِلَهاً. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمُ الَّذِي يُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ» (خر ٦: ٦ - ٧). أي أنه في الوقت الذي يُعيقنا الشيطان محاولاً أن ينزع منا كل شهوة صالحة، ويستميت في إبعادنا بكل الطرق الممكنة، بعيداً عن كل فكر صالح، فإن الناموس الإلهي يحضنا على فعل إرادة الله، وإذ يعرِّفنا بذلك ويستنهض فينا الرجاء الثابت، يقوينا بالإيمان وينسب كل شيء إلى الله، الذي هو بالحقيقة مخلصنا وفادينا[٦٨].

أهمية الإيمان وتبعية المرء لله بفهم وشوق شديد

الإيمان يقود إلى كل صلاح. فعندما ذهب موسى ورفاقه ليتحدثوا مع فرعون ثانيةً محاولين إقناعه بأن يتركهم لكي يرحلوا من مصر

[٦٨] انظر فصل ٧:١٣ من كتاب تجسد الكلمة حيث يشرح القديس أثناسيوس أيضاً ضرورة تدخل الله مخلصنا بعد سقوط الإنسان "إذن فما هو الذى كان ممكناً أن يفعله الله؟ وماذا كان يمكن أن يتم سوى تجديد الخليقة التي وُجدت على صورة الله، مرة أخرى، ولكي يستطيع البشر أن يعرفوه مرة أخرى؟ ولكن كيف كان ممكناً لهذا الأمر أن يحدث إلَّا بحضور نفس صورة الله ـ مخلّصنا يسوع المسيح؟ كان ذلك الأمر مستحيلاً أن يتم بواسطة البشر لأنهم هم أيضاً خُلِقوا على مثال تلك الصورة. (وليس هم الصورة نفسها)، ولا أيضاً بواسطة الملائكة لأنهم ليسوا صوراً (لله) ولهذا أتى كلمة الله بذاته لكي يستطيع -وهو صورة الآب- أن يجدّد خلقة الإنسان، على مثال الصورة".

ويُحرّر بني إسرائيل من قيودهم، فلكي يقنعوه، عملوا أعمالاً معجزية تُذهل العقل. فقد غيَّر موسى شكل العصا إلى حيَّةٍ، مؤكدين بوضوح أنهم بمعونة الله يستطيعون بسهولة، إنجاز أشياء أعظم من هذه. لكن فرعون أعطى أمراً للسحرة المصريين أن يفعلوا نفس الأشياء. وكأن فرعون أراد بهذا الأمر أن يقول لهم، نحن لسنا غير قادرين على مثل هذه الأعمال، وأن مَن يفعل هذا من بين المصريين هم أكثر ممن عندكم. فإن أعمال السحر هي أعمالٌ مدهشة وأنتم أيضاً تقومون بها. غير أنه بسبب أن موقف فرعون قد تقسى جداً لأنه لم يترك بني إسرائيل يرحلون، فقد تعرض لضربات أربع، الواحدة أسوأ من الأخرى، إذ تغيَّرت المياه إلى دم، وظهرت ضفادع وصار بعوض وامتلأت بيوت المصريين ذباباً، الأمر الذي جعل فرعون أكثر جُبناً، إذ دعا أصحاب موسى: «وَقَالَ: «اذْهَبُوا اذْبَحُوا لإِلَهِكُمْ فِي هَذِهِ الأَرْضِ». فَقَالَ مُوسَى: «لاَ يَصْلُحُ أَنْ نَفْعَلَ هَكَذَا لأَنَّنَا إِنَّمَا نَذْبَحُ رِجْسَ الْمِصْرِيِّينَ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا. إِنْ ذَبَحْنَا رِجْسَ الْمِصْرِيِّينَ أَمَامَ عُيُونِهِمْ أَفَلاَ يَرْجُمُونَنَا؟ نَذْهَبُ سَفَرَ ثَلاَثَةِ أَيَّام فِي الْبَرِّيَّةِ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا كَمَا يَقُولُ لَنَا». فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «أَنَا أُطْلِقُكُمْ لِتَذْبَحُوا لِلرَّبِّ إِلَهِكُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ. وَلَكِنْ لاَ تَذْهَبُوا بَعِيداً» (خر ٨: ٢٥ ـ ٢٨)،

المفهوم الروحي كما شرحه القديس كيرلس، أن الشيطان عندما يحاربنا ويقاوم بعنف وبغضة استعدادنا لعمل الصلاح، فإن الله يقف في مواجهته، وبالرغم من وقاحته، فإن الله يذله بالضربات، وعندئذٍ لا يكون أمام الشيطان مفراً إلَّا أن يتركنا رغم إرادته، لكن في الوقت نفسه يحاول أن يقنعنا كي لا نتمم بدقة عبادتنا نحو الله، أو أن نتحرر تماماً من عبوديتنا له. لأن فرعون أمر اليهود أن يذبحوا ليس خارج أرض مصر ولكن داخلها. غير أن موسى بحكمته الشديدة قال: إن

هذا لا يمكن أن يكون. إن الشيطان وهو مبدع الخطية يصير دائماً مبتكراً للدناءات، لهذا يرفضها الناموس الإلهي، ويدين كل مَن يعمل ما يرضي الشيطان. يجب إذن أن يتيقظ أولئك الذين يريدون أن يحيوا باستقامة، وألَّا يخضعوا للأفكار التي يمليها عليهم الشرير، بل يجب أن يخضعوا للأمور التي بشَّرت بها الكلمة الإلهية. لأنه يقول: «سراج لرجلى كلامك ونور لسبيلى» (مز ١١٨: ١٠٥).

علينا أن نعبد فقط مَنْ هو الله بالطبيعة

يبرز القديس كيرلس الأساس الخريستولوجي الصحيح مشددًا على ألوهية المسيح، لذلك يجب علينا أن نعبد فقط مَنْ هو الله بالطبيعة، ولنهرب ـ بقدر الإمكان ـ بعيداً عن الازدواجية، ولهذا يمكننا القول: «لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ» (مت ٦: ٢٤). وأيضاً كما هو مكتوب: «ويل للقلوب الهيابة وللأيدي المتراخية وللخاطئ الذي يمشي في طريقين» (حكمة ابن سيراخ ٢:١٤). ويؤكد القديس كيرلس على ضرورة الحاجة إلى تقديم عبادة طاهرة وبلا لوم لله ضابط الكل، مبتعدين تماماً عن عبادة الشرير. وكما سبق أن ذكرنا أن موسى قال أمام فرعون: «لاَ يَصْلُحُ أَنْ نَفْعَلَ هَكَذَا لأَنَّنَا إِنَّمَا نَذْبَحُ رِجْسَ الْمِصْرِيِّينَ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا. إِنْ ذَبَحْنَا رِجْسَ الْمِصْرِيِّينَ أَمَامَ عُيُونِهِمْ أَفَلاَ يَرْجُمُونَنَا؟ نَذْهَبُ سَفَرَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنَذْبَحُ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا كَمَا يَقُولُ لَنَا». فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «أَنَا أُطْلِقُكُمْ لِتَذْبَحُوا لِلرَّبِّ إِلَهِكُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ. وَلَكِنْ لاَ تَذْهَبُوا بَعِيداً. صَلِّيَا لأَجْلِي» (خر ٨: ٢٥ ـ ٢٨). إنَّ رفض موسى تقديم ذبائح في أرض مصر أمام المصريين له ما يبرره. فالأشياء الرجسة هنا يقصد بها تلك الأشياء التي يُقدِّرها

المصريون ويحترمونها، والتى كان من بينها العجول. فلو قال موسى إنه يمكن تقديم مثل هذه الذبائح لإله العبرانيين، لَجَلَبَ عليه وعلى شعب إسرائيل غضب المصريين. هذا الرفض له علاقة بما نتكلم عنه من أمور روحية ومنافع ليست قليلة. لأننا عندما نُميت الأمور التي يُجلُّها الشياطين إذ تروق لهم، فإننا بذلك نقدم عبادة مرضية أمام الله.

ذبائحنا الروحية[٦٩]

نحن في إماتتنا لهذه الشهوات الجسدية، وفي ذبحنا لها، نُقدِّم رائحةً ذكيةً إلى الله كما يكتب بولس: «أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ» (رو ١٢ : ١). وهذا الأمر يتحقق بما يأتي: «فَأَمِيتُوا اعْضَاءَكُمُ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ: الزِّنَا، النَّجَاسَةَ، الْهَوَى، الشَّهْوَةَ الرَّدِيَّةَ، الطَّمَعَ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ الأَوْثَانِ» (كو ٣:٥). إذن فكل شهوة من شهواتنا، هي صنم كأصنام المصريين، بمعنى أنها أمورٌ مُكرَّمة وموقرة، وقد اعتاد الكتاب أن يدعو الأمور التي لا ترضي الله والتي يعطيها البشر مكانة عظيمة كالأصنام التي يعبدونها «تمثالاً»، فيقول الله على لسان إرميا من جهة الأمور التي كان يفعلها اليهود: «حبيبتي داخل بيتي صنعت تمثالاً» (إر ١١:١٥). ولو أراد أحد أن يدعو الأمور التي كان يكرهها المصريون ولا يقبلونها، أصناماً، لكان على صواب، لأن الأمور التي اعتادت الأرواح النجسة أن تكرهها وتنفر منها، هذه الأشياء هي بالضبط التي يمكن تقديمها كرائحة ذكية إلى الله، وذبيحة روحية، أي إيمان، وداعة، ضبط النفس، عفاف، محبة الآخرين، وكل مفاخر التقوى الحقيقية نحو الله.

---

٦٩ أنظر القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٧٣- ٧٩

مَن هم أولئك الذين يقدمون ذبائح في أرض الشرير؟ ومَن هم أيضاً الذين يذبحون خارج هذه الأرض؟

بحسب التفسير الروحي للقديس كيرلس[٧٠]، الذين لم يخرجوا بعد من أرض المصريين، والذين مازالوا يقدمون ذبائح إلى الله داخل هذه الأرض، كثيرون جداً وبلا حصر، بينما الذين هم خارج مصر، أي داخل الصحراء هم قليلون جداً ومختارون لأنه يقول: «كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ» (مت ٢٠: ١٦). فكُلنا دُعينا إلى الحرية بواسطة إيماننا بالمسيح، وقد افتُدينا من الشيطان الطاغية، والمسيح يقودنا إلى هذه الحرية، وقد كان موسى وهارون مثالاً سابقاً للمسيح. لكن مازالت الأكثرية من المدعوين تعيش في الأمور العتيقة والشريرة مبتعدين بسبب أفكارهم العالمية عن الحق غير عابدين الله في نقاوة وإيمان. هؤلاء هم الذين يمكن أن تقول عنهم إنهم ابتعدوا قليلاً، لكنهم مازالوا يذبحون في مصر، لأن فرعون القاسي القلب قال لهم: «لا تذهبوا بعيداً»، حتى لو خرجتم من أرض المصريين. أمَّا أولئك الذين يريدون أن يكونوا مرضيين تماماً عند الله بالانتقال التام إلى الصلاح، فهؤلاء يتخلصون مرةً واحدةً ودائماً من ضلال العالم، فيخرجون خارجاً من مصر، ويهربون من يد الطاغية، وكما في صحراء، يقدمون ذبائح لله بطهارة: هؤلاء هم أنقياء بالفعل ويعيشون في حياة السكينة والهدوء.

إن هؤلاء الذين يتأهبون للسير في طريق الحق، والذين دُعُوا لمعرفة ذلك الذي هو بالطبيعة الله، هؤلاء يجب أن يرحلوا بعيداً عن أرض العبودية التي فيها تُعبد الخليقة دون الخالق. أي أن الذين لم تَخْلُص أذهانهم تماماً من بقايا الخداع القديم، والبعض منهم لم

٧٠ أنظر القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٧٤

يخرجوا تماماً من أرض مصر وهم يحفظون أياماً وشهوراً وأوقاتاً وسنين، هؤلاء بالرغم من أنهم قد دُعُوا بواسطة المسيح إلى الحرية، إلّا أنهم بسبب سكنهم في أرض المصريين، فإنهم لا يذبحون لله، ممسكين بكل الأمور التي تسرُّ الشيطان. أما مَن يخرج تماماً من أرض العبودية وقد تخلّص كليةً من العادات القديمة، فإنه يذبح للرب في الصحراء ويحيا حياةً تستحق كل ثناء.

لقد كذب فرعون وتنكَّر لوعده أن يترك الإسرائيليين يرحلون. بعد ذلك ضُرِبَ ثلاث ضربات أُخر جعلته يوافق قائلاً: إنه سيتركهم. لكنه أمسكَ ثانيةً يقول الأكاذيب، لأنه وفق كلام المخلص: «إنه كذاب وأبو الكذب» (يو ٨: ٤٤)، وبعد ذلك هدد الله المصريين وألقى عليهم برداً شديداً وجراداً (يدمر الحقول). عندئذٍ رفع موسى وهارون -هؤلاء المدافعون الأشداء ضد شر فرعون- صوتهم قائلين له بقوةٍ: «إِلَى مَتَى يَكُونُ هَذَا لَنَا فَخًّا؟ أَطْلِقِ الرِّجَالَ لِيَعْبُدُوا الرَّبَّ إِلَهَهُمْ. أَلَمْ تَعْلَمْ بَعْدُ أَنَّ مِصْرَ قَدْ خَرِبَتْ؟» (خر ١٠: ٧).

بحسب التفسير الروحي للقديس كيرلس، ربما يكون الشيطان في حالات معينة هو الأقوى من بين قوات السلاطين، حيث يتفاخر بنصره، لأن قواته -كما هو ظاهر- صلبةً وقاسية بما لا يُقارن، وهو لا يقيم وزناً للغضب الإلهي، فوحشيته فائقة وقسوته لا نهاية لها، لأنه مكتوب: «قلبه صلب كالحجر وقاسٍ كالرحى». وحينما علت الأصوات أمام فرعون -مطالبةً بالحريةـ قال لأصحاب موسى: «اذْهَبُوا اعْبُدُوا الرَّبَّ إِلَهَكُمْ. وَلَكِنْ مَنْ وَمَنْ هُمُ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ؟». فَقَالَ مُوسَى: «نَذْهَبُ بِفِتْيَانِنَا وَشُيُوخِنَا. نَذْهَبُ بِبَنِينَا وَبَنَاتِنَا بِغَنَمِنَا وَبَقَرِنَا. لأَنَّ لَنَا عِيداً لِلرَّبِّ». فَقَالَ لَهُمَا: «يَكُونُ الرَّبُّ مَعَكُمْ هَكَذَا كَمَا أُطْلِقُكُمْ وَأَوْلاَدَكُمْ. انْظُرُوا إِنَّ قُدَّامَ وُجُوهِكُمْ شَرًّا لَيْسَ هَكَذَا. اذْهَبُوا

أَنْتُمُ الرِّجَالَ وَاعْبُدُوا الرَّبَّ. لأَنَّكُمْ لِهَذَا طَالِبُونَ» (خر ١٠: ٨ - ١٠).

إن موسى كليم الله أصرَّ على أن يخرج معه الجميع بدون أن يترك هناك أحد، وأن يذهب معه كل الشباب والشيوخ، الأبناء والبنات، وقطعان البقر والحيوانات الأخرى. أي يجب على المهتمين بالحصول على الحرية الحقيقية، والخلاص من شرور العالم بإرادتهم، والسلوك في طريق الفضيلة، إلاَّ يُتركوا ولو بقية صغيرة جداً من ذواتهم وأفكارهم دون أن تتحرر، حتى لا يخضعوا ثانيةً بواسطتها تحت سلطان الشرير. والوصايا الإلهية، تدعو الفتيان والفتيات والشيوخ مع الشباب لفعل هذا أيضاً وذلك في المزمور (١٤٨: ١٢).

بحسب القديس كيرلس، يمكننا أن نفهم مراحل العمر بطريقة روحية في المسيح. فلهؤلاء وجَّه يوحنا العظيم قائلاً: «أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الآبَاءُ لأَنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي مِنَ الْبَدْءِ. أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الأَحْدَاثُ لأَنَّكُمْ قَدْ غَلَبْتُمُ الشِّرِّيرَ. أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الأَوْلاَدُ لأَنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمُ الآبَ. كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الآبَاءُ لأَنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي مِنَ الْبَدْءِ. كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الأَحْدَاثُ لأَنَّكُمْ أَقْوِيَاءُ، وَكَلِمَةُ اللهِ ثَابِتَةٌ فِيكُمْ، وَقَدْ غَلَبْتُمُ الشِّرِّيرَ» (١ يو ٢: ١٣ - ١٤). حيث يمكن أن نفهم مراحل العمر هكذا: الأحداث يرمزون للشهامة والرجولة، الشيوخ للحكمة، والأولاد والبنات يرمزون إلى الفكر البسيط. لأنه بالرجولة والحكمة والبساطة -بحسب الله- ننتقل من الخطية إلى حياة القداسة، لأنه يقول:»لتتشدد ولتتشجع قلوبكم ياجميع المنتظرين الرب» (مز ٣١: ٢٤). وأيضاً: «كُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَامِ» (مت ١٠: ١٦). وعندما يقول موسى أن يأخذوا معهم الأغنام والأبقار، فإني أعتقد أن هذا يشير إلى أنه لا يجب أن نترك للشيطان ولا حتى أعضائنا الجسدية

التي لا تشترك في عملية التفكير. إذ أن بولس العظيم يكتب:»لأَنَّهُ كَمَا قَدَّمْتُمْ أَعْضَاءَكُمْ عَبِيداً لِلنَّجَاسَةِ وَالإِثْمِ لِلإِثْمِ هَكَذَا الآنَ قَدِّمُوا أَعْضَاءَكُمْ عَبِيداً لِلْبِرِّ لِلْقَدَاسَةِ» (رو ٦:١٩).

التفسير الروحي بخصوص : لأي سبب أراد فرعون أن يترك الشباب والناضجين ليرحلوا، بينما أراد أن يحتفظ بالآخرين[٧١]

إن (الشيطان) يعتبر أولئك المملوءين حيوية ونشاطاً ولديهم استعدادٌ قوي لحياة التقوى، يعتبرهم مزعجين له، لأنه يريد أن يتخلص ممَن يمكنهم أن يقاوموه، إذ لديهم القدرة على الرد والدفاع عن ذواتهم عندما يقع عليهم الظلم حسب المكتوب: «قَاوِمُوا إِبْلِيسَ فَيَهْرُبَ مِنْكُمْ» (يع ٤:٧). وعلى العكس من هذا، فإنه أراد أن يُبقي أولئك الذين ليس في طبيعتهم تلك الحيوية وذلك النشاط، بل هم يميلون في سلوكهم للرخاوة والتنعم، الذي ينم عن الضعف والعجز. وتشير الأبقار والأغنام السمينة وغير العاقلة التي أراد فرعون أن يبقيها في مصر إلى هؤلاء الذين ذكرنا أنهم يسلكون في رخاوة وتنعُّم.

غير أن فرعون صاحب الرأس العنيد لم يوفِ بوعوده، إذ أنه بسبب هجوم الجراد الذي -كما تقول الكلمة- أكل كل شيء في الأرض، دعا موسى وهارون وقال لهما: «اذْهَبُوا اعْبُدُوا الرَّبَّ. غَيْرَ أَنَّ غَنَمَكُمْ وَبَقَرَكُمْ تَبْقَى. أَوْلاَدُكُمْ أَيْضاً تَذْهَبُ مَعَكُمْ». فَقَالَ مُوسَى: «أَنْتَ تُعْطِي أَيْضاً فِي أَيْدِينَا ذَبَائِحَ وَمُحْرَقَاتٍ لِنُقَرِّبُهَا لِلرَّبِّ إِلَهِنَا. فَتَذْهَبُ مَوَاشِينَا أَيْضاً مَعَنَا. لاَ يَبْقَى ظِلْفٌ. لأَنَّنَا مِنْهَا نَأْخُذُ لِعِبَادَةِ الرَّبِّ إِلَهِنَا. وَنَحْنُ لاَ نَعْرِفُ بِمَاذَا نَعْبُدُ الرَّبَّ حَتَّى نَأْتِيَ إِلَى هُنَاكَ» (خر ١٠: ٢٦).

---

[٧١] أنظر القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٧٧-٨١

بحسب القديس كيرلس، إن مَن يقاوم ويحارب أولئك الذين يريدون أن يكونوا أنقياء، يريد أن يحتفظ ولو بجزءٍ بسيطٍ منهم تحت سيطرته، حتى لو ظل الباقى خارج قبضته. وغير ذلك فإن الوصية الإلهية تعلمنا أن الحرية يجب أن تشمل الإنسان كله، فلا يُترك في قبضة الشيطان ولو جزءٌ صغير جداً من النفس أو حتى أي دافع لأي عمل جسدي. بل بالحري يجب أن نقدم لله كل ما هو حسن وفائق في هذه الحياة. لأن هذا ما تعنيه أن يأخذوا الحيوانات معهم من مصر ويذبحونها لله في الصحراء. ألم يكن هذا هو ما فعله هؤلاء الذين - بحكمة العالم - كانوا يقاومون عقائدنا الإلهية، مستخدمين حكمة الكلام المبهر، والمعرفة التي تسبب مرارة النفس، وهم في ذلك كله يظنون أنهم يقدمون عبادةً عقلية لله؟ ولأن «كل حكمة هي من الله» (حكمة ابن سيراخ ١:١)، كما هو مكتوب، فإننا نقول إن الشعراء والفلاسفة اليونانيين وصلوا لهذه الفصاحة بروح العالم وليس عن طريق الحكمة الإلهية. ولهذا يقول بولس العظيم: «وَنَحْنُ لَمْ نَأْخُذْ رُوحَ الْعَالَم بَلِ الرُّوحَ الَّذِي مِنَ اللهِ لِنَعْرِفَ الأَشْيَاءَ الْمَوْهُوبَةَ لَنَا مِنَ اللهِ. الَّتِي نَتَكَلَّمُ بِهَا أَيضاً لاَ بِأَقْوَالٍ تُعَلِّمُهَا حِكْمَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ بَلْ بِمَا يُعَلِّمُهُ الرُّوحُ الْقُدُسُ» (١ كو ٢: ١٢ - ١٣). وفي الحقيقة إن موسى عندما قال إن الإله الحقيقى لا يحتقر ما نقدمه له من أشياء ثمينة من هذا العالم، كان لا يزال تحت ظلال العهد القديم، ولهذا لم يبين ما قاله بوضوح، بل تكلم عنه بالرمز. لأنه عندما أمر الله بأن يسلب الإسرائيليون أشياء من المصريين، قال إنه يجب أن يأخذوا من جيرانهم مصنوعات ذهبية وفضية، ولقد أتم نساؤهم هذا الأمر باقتدار، حيث تميزن بكثرة الكلام المقنع وابتداع الحيل مع النساء المصريات. إن الأوانى الذهبية والفضية

التي كانت للمصريين، يمكن أن تمثل، وبحسب القديس كيرلس، سبب فخر لبعض الأشخاص، بالرغم من أنهم يعرفون الإله الحقيقى. إن نشاط الفكر والنفس والميل نحو كل صلاح، هي عناصر مشتركة لجميع الناس، لكن أولئك الذين يستخدمون هذه المميزات الطبيعية، استخداماً حسناً يحققون حياةً مُشرقةً وفائقة، بينما أولئك الذين لا يستخدمون هذه المميزات ينحرفون تماماً عن جهل إلى كل ما لا يليق، ويُظهِرون -بطريقة ما- كيف أن خيرات الطبيعة يمكن أن تُستخدم بطريقة غير حسنة. فالشجاعة والحكمة هي أشياء حسنة عندما تُستخدم بطريقة سليمة، وهى مُضرة أيضاً عندما لا تستخدم بطريقة جيدة. لأن الشجاعة والحكمة يمكن أن تكونا سبباً لإطراء واستحسان عمل شخص ما، وسبب استجهان لعمل شخص آخر. إذ أن كل هذه الأمور هي مشتركة بين الجميع، أي لمن لديهم معرفة الله وأيضاً لمن هم في ضلال عدم معرفته.

إذن عندما نستخدم نحن هذه الصفات في عمل يرضي الله، فإن هذا يشبه ما أُخِذَ من المصريين من خيرات مادية، وأصبح مقدَّساً ومقبولاً لدى الله، كالأواني الذهبية التي تبيِّن أن فائدتها عظيمة في صنع وتكميل خيمة الاجتماع. وبعد سلب هذه الأشياء من المصريين وموت الأبكار تحرر الإسرائيليون، وذبحوا الحَمَل كمثال للمسيح. لأنه لم يكن باستطاعتهم أن يحصلوا على الحرية بطريقة أخرى، لأن الفداء يتم فقط بالمسيح، والذى منه تنزل كل موهبة صالحة. عندئذٍ رحلوا من مصر في منتصف الليل وتحرروا من الظلمة والعبودية. لأن عبيد الخطية يحبون دائماً التواجد في الظلمة الذهنية وليس في النور الإلهى، كما يقول المخلص: «كل مَن يعمل السيئات يبغض النور» (يو ٣: ٢٠). فأخذوا عجيناً غير مختمرٍ ورحلوا بدون

مؤنٍ. لأنه يقول: «وَأَلَحَّ الْمِصْرِيُّونَ عَلَى الشَّعْبِ لِيُطْلِقُوهُمْ عَاجِلاً مِنَ الأَرْضِ لأَنَّهُمْ قَالُوا: «جَمِيعُنَا أَمْوَاتٌ». فَحَمَلَ الشَّعْبُ عَجِينَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَخْتَمِرَ وَمَعَاجِنُهُمْ مَصْرُورَةٌ فِي ثِيَابِهِمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ» (خر ١٢: ٣٣ - ٣٤). لأنه لا يجب - على ما أعتقد - على كل مَن يريدون أن يُدعوا إلى الله ويبرهنون على أنه يسكن في داخلهم، أن يأخذوا معهم أيَ فتاتٍ من شرور العالم، وألّا تكون مؤنهم أطعمةً غريبةً ونجسةً. بل خبزاً بلا خميرٍ، مشتهين الخبز الذي يُحيي العالم. هؤلاء يعيشون في نقاوة متممين عبادةً مقبولةً لله، وهكذا يسلكون دائماً حسب إرادته.

إذن يجب على محبي الله والصالحين أن يصلوا إلى الأرض المقدسة، أي إلى مملكة المسيح، متحررين من كل عبودية، مُسرعين لكي يذبحوا لله ليس في أرض الأعداء، حيث تستعبدهم محبة الخطية، لكن بالحري يذبحون وهم على استعداد تام لعمل الفضيلة، والسلوك بعيداً عن كل تسلط الشيطان الطاغي.

سبي بابل نموذج لأسر الشيطان[٧٢]

يسرد القديس كيرلس الواقعة التاريخية حيث يؤكد أنه عندما أحزن ساكنو المدينة المقدسة أورشليم مخلص الجميع، إذ كانت لديهم شهوة فعل كل ما هو غير لائق، صاروا مستعبَدين للبابليين، الذين أسروهم وجعلوهم عبيداً رغم إرادتهم. وإذ صاروا عبيداً انتابهم حزن عظيم، وصاروا ينتحبون على مصائرهم. فأخذوا يسبِّحون الله في محاولةٍ لتخفيف الألم الذي أصابهم، والتقليل من الحزن الذي كانوا يعانون منه قائلين مع داود: «تذكرت الله فامتلأت فرحاً». فلقد حوّل داود

[٧٢] أنظر القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٩٧-٨١

تسبيحه لله إلى عيدٍ روحي، غير أن البعض منهم ظن أنه أمر لا يليق أن يكون هذا التسبيح العذب وتلك الأناشيد الجميلة على مسمع من قومٍ غرباء لا يقدِّرونها، إذ كان البابليون يستهزئون عند سماعهم تلكً التسابيح. لذلك قالوا: «على أنهار بابل هناك جلسنا وبكينا عندما تذكرنا صهيون» (مز ١٣٦: ١ - ٢). فهناك (في الهيكل) كانت تُقدم صلوات ذبيحةً شكرٍ مصحوبةٍ بآلات وترية ونفخ وموسيقى تخلب عقول هؤلاء الذين يأتون إلى الهيكل المقدس. كل هذا كان يقدَّم وفق نواميس وعادات اليهود، لكن بسبب أنهم كانوا في عبودية غريبة وثقيلة ومقيدين بشدة، كانوا يقولون منتحبين: «على الصفصاف في وسطها علقنا أعوادنا» (مز ١٣٦: ٢)، معلنين بهذا أنهم توقفوا عن الغناء والتسبيح. فشجرة الصفصاف هي شجرة عقيمة أو بالأحرى شجرة ثمارها ضارة كما قال أحد شعراء اليونان[٧٣].

ظلت إذن آلات الأناشيد بغير استخدام، وفي صراخهم تساءلوا: «كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة» (مز ١٣٦:٤)، وعندما نقل لهم باروخ كلمات إرميا بكوا، إذ يقول: «فبكوا وصاموا وصلوا أمام الرب. وجمعوا من الفضة قدر ما استطاعت يد كل واحد. وبعثوا إلى أورشليم إلى يواقيم بن حلقيا بن شكوم الكاهن وإلى الكهنة وإلى جميع الشعب الذين معه في أورشليم» (باروخ ١: ٥ - ٧). وبعد ذلك يقول: «وقالوا إنّا قد أرسلنا إليكم فضة فابتاعوا بالفضة محرقات وذبائح للخطية ولُباناً واصنعوا تقدمات وقدموها على مذبح الرب إلهنا» (باروخ ١٠:١). لقد ظنوا أنه لا يليق بهم أن يذبحوا، طالما هم خارج الأرض المقدسة ولا هم تحت سلطان الله. حيث كانوا تحت نير وسلطان شخص آخر طاغٍ. لذلك أسندوا العبادة لهؤلاء الذين كانوا

٧٣ هوميروس: الأوديسا٢٠.

يسكنون في أورشليم، إذ كان يليق بهؤلاء مثل هذه العبادات المقدسة، وفي هذا كانوا يفكرون تفكيراً سليماً فيما هو واجب، ويفعلوه.

دانيال الحكيم أيضاً وهو يدرس الكتب المقدسة، مع أنه كان أسيراً معهم، لكنه حاول مع آخرين أن يخفف عنهم هذه الحالة الصعبة. فكيف فعل ذلك؟ لقد صلى ثلاث مرات في اليوم. وإذ كانت الكوة مفتوحة تجاه أورشليم في العلية حيث كان يصلي، كما هو مكتوب (دانيال ٦:١)، حينئذٍ ظن أن صلاته سوف تكون مقبولةً أمام الله، طالما أنه ابتعد عن الأرض الغريبة والمكروهة، وإن كان ليس بالجسد، أي ابتعد على الأقل بذهنه، وبأعين النفس، ناظراً نحو تلك الأرض المحبوبة إلى الله، ومتقدماً -وكأنه بطريقة ما- داخل الهيكل المقدس نفسه، لكي يقدم صلاته.

٢ـ عظة تمهيدية[٧٤]:

على بعض آيات

إنجيل لوقا الأصحاح الأول

(لو ١: ٢) « الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ».

يربط القديس كيرلس ما جاء في يو ١: ١٤ بما يقوله القديس لوقا هنا، أي يفسر الكتاب بالكتاب، إذ يقول : [عندما يقول البشير لوقا إن الرسل كانوا شهود عيان لذات الكلمة المحيي، فإنه بذلك يتفق مع البشير يوحنا، الذى يقول إن **«الكلمة صار جسدًا. وحل فينا. ورأينا مجده مجدًا كما لوحيد من الآب»** (يو ١: ١٤)]. فالكلمة ـ كما يؤكد القديس كيرلس ـ أصبح من الممكن رؤيته بسبب الجسد الذي هو منظور وملموس، بينما الكلمة ذاته غير منظور. أيضاً يستمر في ربط هذا العدد بنص يوحنا في رسالته: **«الذي كان من البدء. الذي سمعناه. الذي رأيناه بعيوننا. ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة. فإن الحياة أُظهِرَت»** (١يو ١: ١).

الأمر الهام هنا هو تشديد القديس كيرلس على تجسد الكلمة أي على **البُعد الخريستولوجي** في تفسيره لنصوص الكتاب، فالقديس لوقا يتحدث عن الحياة على أساس أنها يمكن أن تُلمس على أساس أن الابن صار إنسانًا وصار منظورًا من جهة الجسد، ولكنه غير منظور من جهة لاهوته.

---

٧٤ أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص ٢٦-٢٩.

(لو ١: ٥١) «صَنَعَ قُوَّةً بِذِرَاعِهِ. شَتَّتَ الْمُسْتَكْبِرِينَ بِفِكْرِ قُلُوبِهِمْ».
(لو ١: ٥٢) « أَنْزَلَ الأَعِزَّاءَ عَنِ الْكَرَاسِيِّ وَرَفَعَ الْمُتَّضِعِينَ».

يرى القديس كيرلس بصفته منتمي إلى مدرسة الإسكندرية الطريقة الرمزية هي الأفضل لشرح نص الكتاب فيقول إن الذراع يشير رمزيًّا إلى الكلمة الذي وُلد من العذراء، وتعني مريم بالمستكبرين:

١- الشياطين الأرداء الذين سقطوا مع رئيسهم بواسطة الكبرياء.

٢- حكماء اليونانيين، الذين رفضوا أن يقبلوا كرازة الإنجيل التي عندهم جهالة

٣- اليهود الذين لم يؤمنوا والذين تشتتوا بسبب تصوراتهم غير اللائقة عن كلمة الله. وتقصد «بالأعزاء» :

١- الكتبة والفريسيين الذين يسعون للكراسي الأولى.

٢- الشياطين الأرداء، فإن هؤلاء حينما ادَّعوا السيادة على العالم فإن الرب شتَّتهم بمجيئه إلينا، ونقل أولئك الذين كانوا أسرى لهم إلى سيادته وملكوته هو. هكذا رفع أولئك الذين تواضعوا تحت يده القوية، وأعطى هؤلاء السلطان أن يدوسوا الحيات والعقارب، وعلى كل قوة العدو.

هنا بالرغم من استخدامه التفسير الرمزي إلا أنه لا يتجاهل البُعد التاريخي، إذ يقول:» فاليهود الذين كانوا يفتخرون سابقًا بمملكتهم نُزعت منهم بسبب عدم إيمانهم، بينما الوثنيين الذين لم يكونوا يعرفون الله رفعهم ومجَّدهم بسبب إيمانهم».

(لو ١: ٥٣) «أَشْبَعَ الْجِيَاعَ خَيْرَاتٍ وَصَرَفَ الأَغْنِيَاءَ فَارِغِينَ».

وهي تعني «بالجياع»: الجنس البشري. إذ يؤكد أنه فيما عدا اليهود كان الجميع مجروحين بالجوع: «فاليهود كانوا أغنياء بإعطائهم الناموس وبتعليم الأنبياء القديسين. فقد كان لهم «التبنِّي **والعبادة والاشتراع والمواعيد»** (رو٩: ٤) ولكنهم تلهّوا بالطعام الكثير، انتفخوا بالمنزلة التي أُعطيَت لهم ولأنهم رفضوا أن يقتربوا باتضاع من الكلمة المتجسد، فقد صُرفوا فارغين، لا يحملون معهم شيئًا لا الإيمان ولا المعرفة ولا الرجاء في البركات الآتية، فإنهم بالحقيقة صاروا منبوذين من أورشليم الأرضية وأيضًا غرباء عن حياة المجد التى ستُعلَن في المستقبل، لأنهم لم يقبلوا رئيس الحياة، بل صلبوا رب المجد، وتركوا ينبوع الماء الحي واعتبروا الخبز النازل من السماء أنه لا شيء، ولهذا السبب فقد أتى عليهم جوع أشد من أي جوع آخر، وعطشٌ أكثر مرارة من كل عطشٍ آخرٍ».

ويوضح القديس كيرلس المفهوم الحقيقي للجوع، إذ يقول:[لم يكن جوع إلى الخبز المادي ولا عطش إلى الماء، ولكنه «جوع **لاستماع كلمة الله»** (انظر عاموس٨: ١١)][٧٥]. أما الأمم يقول عنهم القديس كيرلس» كانوا جياع وعطشى بنفوسهم الهزيلة البائسة، فقد امتلأوا بالبركات الروحية، لأنهم قبلوا الرب. فإن كل امتيازات اليهود قد نُقلِتْ إليهم».

٧٥ أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص ٢٧.

(لو ١ : ٥٤) «عَضَدَ إِسْرَائِيلَ فَتَاهُ لِيَذْكُرَ رَحْمَةً».

يعتبر القديس كيرلس إسرائيل بأنه إسرائيل الروحي وكذلك الجسدي، إذ يقول عن إسرائيل الروحي: «ليس إسرائيل حسب الجسد الذي يفخر بمجرد الاسم، ولكن ذلك الذي هو بالروح وبحسب المعنى الحقيقي للاسم ـ ذلك الذي ينظر إلى الله، ويؤمن به، وينال تبنِّي البنين بواسطة الابن بحسب الكلمة التي أُعطيَت، والوعد المعطَى للأنبياء والبطاركة (رؤساء الآباء) القدماء». ثم عن إسرائيل حسب الجسد، يقول: «ولكن كلمة إسرائيل لها انطباق حقيقي أيضًا على إسرائيل الجسدي، فإن آلاف وربوات من بينهم قد آمنوا. ولكنه قد ذكر رحمته كما وعد إبراهيم. وقد تمَّم ما قاله له بأن «**في نسلك تتبارك جميع قبائل الأرض**» (تك٢٢: ١٨). فإن هذا الوعد كان في طريقه إلى التحقُّق بميلاد مخلِّصنا المسيح الذي كان على وشك الحدوث، الذي هو نسل إبراهيم الذى فيه تتبارك الأمم، لأنه أمسك بنسل إبراهيم كما تقول كلمات الرسول (انظر عب٢: ١٦). وهكذا تحقق الوعد الذي أعطَى للآباء»[٧٦].

(لو ١ : ٦٩) «وَأَقَامَ لَنَا قَرْنَ خَلاَصٍ فِي بَيْتِ دَاوُدَ فَتَاهُ».

إن كلمة «قرن» بالتفسير الروحي أو الرمزي تشير إلى القوة وأيضاً إلى الملوكية. ويؤكد القديس كيرلس على أن المسيح الذي هو المخلِّص الذي جاء لنا من بيت وجنس داود هو القوة والملك معًا، لأنه هو ملك الملوك وهو قوة الآب غير المغلوبة. بالتالي المسيح هو المركز والمحور ومفتاح الكتب المقدسة[٧٧].

---

٧٦ أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص ٢٧-٢٨.

٧٧ أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٢٨.

(لو ١ :٧٢) « لِيَصْنَعَ رَحْمَةً مَعَ آبَائِنَا».

التأكيد هنا من جانب القديس كيرلس على أن « المسيح هو رحمة وعدل « بر» لأننا نلنا رحمة بواسطته، وتبرَّرنا إذ قد غُسلنا من أوساخ خطيتنا بالإيمان به».

(لو ١ :٧٣) «الْقَسَمَ الَّذِي حَلَفَ لإِبْرَاهِيمَ أَبِينَا».

يوضح القديس كيرلس أمراً هاماً جداً في مسألة التفسير بأن ما يُنسب إلى الله من أقوال بشرية لا يجب أن تؤخذ على أساس أن الله يتصرف مثل البشر، هنا القسم بحسب القديس كيرلس لا يعني أن الله يُقسِم بل المقصود هو الإشارة إلى يقينية الحدث مثلما يُقال على الله أنه غضب فالكلمة تشير إلى موقف الله القوي وليس إلى الإنفعال. بالتالي الكلمات البشرية التي تُنسب إلى الله لا بُد أن تُفهم بمفهوم يليق بالطبيعة الإلهية، إذ يقول : «لا ينبغى لأحد حينما يسمع أن الله أقسم لإبراهيم، لا ينبغى له أن يسمح لنفسه بأن يُقسِم، وكما أن الغضب حينما يُقال على الله هو ليس غضبًا ولا يعني الانفعال، ولكن يُقصد به القوة التي تظهر في العقاب أو أي حركة مشابهة. هكذا أيضًا فالقَسَم بالنسبة له ليس قسمًا. لأن الله لا يقسم بل يشير إلى يقينية الحدث ـ أي أنَّ ما يقوله سيحدث بالضرورة، لأن قَسَم الله هو كلمته الخاصة التي تحُث الذين يسمعونه حثًّا كاملاً، وتعطي كل واحد الاعتقاد بأن ما قد وعد به الله وقاله لابد أن يحدث بالتأكيد»[٧٨].

---

٧٨ أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٢٨.

(لو ١: ٧٦) « وَأَنْتَ أَيُّهَا الصَّبِيُّ نَبِيَّ الْعَلِيِّ تُدْعَى، لأَنَّكَ تَتَقَدَّمُ أَمَامَ وَجْهِ الرَّبِّ لِتُعِدَّ طُرُقَه».

يؤكد القديس كيرلس على أن المسيح هو العليِّ الذي كان يوحنا سابقًا له في ميلاده وكرازته لإعداد الطريق، وبالتالي لا يستطيع أحد أن يقلل من ألوهيته، وهو أيضاً نبي « الله» مثل أنبياء الله السابقين له.

(لو ١: ٧٩) «لِيُضِيءَ عَلَى الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ».

يوضح القديس كيرلس حقيقة يوحنا المعمدان بأنه كان سراج سابق للمسيح، ووضح أيضاً موقف اليهود منه، إذ يقول: [كان المعمدان بالنسبة لأولئك الذين تحت الناموس الساكنين في اليهودية، كأنه سراج سابق للمسيح، وهكذا تكلم عنه الله سابقًا « **هيأت سراجًا لمسيحى**» (مز ١٣١: ١٧). والناموس يُعطي إشارة عنه بالمنارة التي في المسكن الأول، التي أوصى بأن تكون موقَدة دائمًا. ولكن اليهود، بعد أن سُرُّوا به فترة قصيرة مندفعين أفواجًا إلى معموديته، ومعجبين بطريقة حياته، فإنهم سريعًا ما جعلوه يرقد رقاد الموت مجتهدين أن يطفئوا المصباح الدائم الاشتعال. لذلك تحدث عنه المخلِّص أيضًا: « **كان هو السراج الموقد المنير وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة**» (يو٥: ٣٥)][٧٩].

« لِكَيْ يَهْدِيَ أَقْدَامَنَا فِي طَرِيقِ السَّلاَمِ».

كان العالم تائهًا في الضلال، والضلال عند القديس كيرلس يعني

٧٩ أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٢٩.

أن العالم كان يعبد المخلوق بدلاً من الخالق، وكأن الليل قد سقط على عقول الجميع فلا يدعهم يبصرون ذاك الذي هو بالطبيعة وبالحقيقة الله. ولكن رب الكل جاء للإسرائيليين مثل نور ومثل شمس[٨٠].

---

٨٠ أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٢٩.

٣- الأصحاح الثاني: ١ ـ ٧

عظة (١)[٨١]

ولادة المسيح في بيت لحم

البُعد التاريخي في تفسير القديس كيرلس

يذكر القديس كيرلس ضرورة أن يشير القديس لوقا للظرف التاريخي الذي حدث أثناء ولادة المسيح في بيت لحم، إذ يقول : "وُلد المسيح في بيت لحم في الوقت الذي أمر فيه أوغسطس قيصر أن يتم الاكتتاب (الإحصاء) الأول. ولكن ربما يسأل واحد، ما هي الضرورة التي جعلت البشير الحكيم جدًّا أن يذكر هذا الأمر بنوع خاص؟ أجيب: نعم، إنه كان أمرًا نافعًا كما أنه أمر ضروري أن يُحدِّد الفترة التي وُلد فيها المخلِّص. لأنه قد قيل بصوت رئيس الآباء: « **لا يزول رأس من يهوذا. ولا مشترع من بين رجليه حتى يأتي الذي جعل له. وهو انتظار الشعوب**» (تك٤٩: ١٠ سبعينية). وذُكِرَ هذا الأمر أيضًا لكى نعرف أن الإسرائيليين لم يكن لهم في ذلك الوقت مَلِك من عشيرة داود، وأن حكامهم الذين من أمَّتهم قد سقطوا. فهو لسبب مناسب يذكر أوامر قيصر. فإن اليهود وبقية الأمم كانوا تحت سلطان حكمه. فهو إذ كان حاكمًا لهم أَمَر أن يُجرى هذا الإحصاء».

أيضاً برهن القديس كيرلس أن العذراء كانت من نفس عشيرة

---

٨١ أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٣٢-٣٦.

داود عن طريق المعلومه التي ذكرها لوقا الإنجيلي بأن يوسف كان من بيت داود وعشيرته (أنظر لو٢:٤) وذلك كما يقول القديس كيرلس : « ذلك أن الناموس الإلهي قد أمر أن التزاوج ينبغي أن يكون محصورًا بين أشخاص من نفس العشيرة. ومُفسِّر التعاليم السماوية، الرسول العظيم بولس يُعلن الحق بوضوح، فهو يشهد أن الرب خرج من سبط يهوذا (عب٧:١٤)».

البُعد العقيدي:

يشرح القديس كيرلس كيفية إتحاد اللاهوت والناموس في شخص المسيح:

«إن الطبائع التى اجتمعت إلى هذا الاتحاد الحقيقى هي مع ذلك مختلفة عن بعضها، ولكن من الاثنتين معًا (أي من الطبيعتين) هو واحد، أي الله الابن دون أن يُضيع تمايز الطبيعتين بسبب الاتحاد. لأنه قد صار اتحاد من الطبيعتين، ولذلك فنحن نعترف بمسيح واحد، ابن واحد، ونحن بالإشارة إلى فكرة الاتحاد هذه بدون اختلاط، فإننا نعترف بالقديسة العذراء أنها والدة الإله. لأن الله الكلمة أخذ جسدًا وصار إنسانًا، وبالحبل به في بطنها وجد الهيكل الذى اتخذه منها بنفسه.

فإننا نرى أن طبيعتين - بواسطة اتحاد لا انفصال فيه - قد اجتمعتا معًا فيه بدون اختلاط وبدون انقسام، لأن الجسد هو جسد وليس لاهوتًا رغم أنه قد صار جسد الله، وبنفس الطريقة أيضًا فإن الكلمة هو إله وليس جسدًا رغم أنه بسبب التدبير قد جعل الجسد جسده. ولكن رغم أن الطبائع التى اجتمعت في تكوين الاتحاد هي مختلفة إحداها عن الأخرى كما أنها غير متساوية بعضها مع بعض، إلا أن

ذلك الذى تكوَّن من الطبيعتين معًا هو واحد فقط. ونحن لا نفصل الرب الواحد يسوع المسيح إلى إنسان وحده وإله وحده، بل نحن نؤكد أن المسيح يسوع هو واحد، وهو نفسه، معترفين بالتمايز بين الطبيعتين بدون أن نخلطهما الواحدة مع الأخرى «[٨٢].

هذا هو ملخص التعليم الخريستولوجي للقديس كيرلس رداً على المبالغات الخريستولوجية لبعض معلمي أنطاكية وبالحري نسطور.

(لو٢: ٥) «مَعَ مَرْيَمَ امْرَأَتِهِ الْمَخْطُوبَةِ وَهِيَ حُبْلَى».

يقول القديس البشير إنَّ مريم كانت مخطوبة ليوسف، لكى يُبيِّن أن الحمل حدث وهى مخطوبة فقط، وأن ولادة عمانوئيل كانت معجزية، ولم تكن بحسب قوانين الطبيعة. لأن العذراء القديسة لم تحمل من زرع إنسان. والسؤال هو لماذا حدث هذا؟

يجيب القديس كيرلس على هذا السؤال الهام مؤكداً على أن « المسيح، الذي هو باكورة الجميع، وهو آدم الثاني حسب الكُتب، قد وُلد من الروح لكي ينقل هذه النعمة (نعمة الولادة الروحية) إلينا نحن أيضًا. فنحن أيضًا قد أُعد لنا أن لا نحمل فيما بعد اسم أبناء البشر بل بالأحرى نُولَد من الله وذلك بحصولنا على الميلاد الجديد من الروح الذى تم في المسيح نفسه أولاً، لكي يكون هو «متقدمًا بين الجميع» (كو١: ١٥) كما يُعلن بولس الحكيم جدًّا»[٨٣].

ثم ينتقل ق.كيرلس إلى البرهنة على تحقيق النبوات الواردة في العهد القديم، إذ يقول: «إن فرصة الإحصاء كانت سببًا مناسبًا جدًّا لكي تذهب

[٨٢] أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٣٣.

[٨٣] أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٣٣-٣٤.

العذراء إلى بيت لحم لكى نرى نبوة أخرى تتحقق. لأنه مكتوب:

«وأنتِ يا بيت لحم أفراتة وأنتِ صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا. **فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطًا على إسرائيل»** (ميخا٥:٢).

ويرد القديس كيرلس على الذين ينادون بأن الكلمة لم يأتي في الجسد لكي يحافظوا على العذراء من فساد بكوريتها (الخياليين) قائلاً:

«هؤلاء نقول لهم إن النبي يُعلِن « أن الرب إله إسرائيل قد دخل وخرج. **والباب يظل مغلقًا»** (حز٤٤:٢)، وأيضًا إن كان الكلمة قد صار جسدًا بدون تزاوج جسدي، إذ أنه حُمل به بدون زرع بشر، فإنه إذن وُلد دون أن تُمس عذراويتها».

(لو٢ : ٦، ٧) «وبينما هما هناك تمَّت أيامها لتلد، فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته في المزود»

يؤكد ق.كيرلس على إنَّ معنى البكر هنا ليس مجرد [أنه الأول بين إخوة عديدين، بل هو ابنها الأول والوحيد، فإن هذا هو المعنى من بين المعاني التي تُفسَّر بها كلمة «البكر». لأن الكتاب المقدس أحيانًا يسمِّي الوحيد بالأوَّل كما هو مكتوب: «**أنا الله. أنا الأوَّل وليس هناك آخر معي**» (إش٤٤:٦ سبعينية). فلكي يتَّضح أن العذراء لم تلد مجرد إنسان، لذلك أُضيفت كلمة «البكر»، وحيث أنها ظلت عذراء فلم يكن لها ابن آخر إلاَّ ذلك هو من الله الآب، والذي بخصوصه أعلن أيضًا الله الآب بصوت داود «**أنا أيضًا أجعله بكرًا. أعلى من ملوك الأرض**» (مز٨٩:٢٧)][٨٤]. نجد هنا أن محتوى المصطلح يصنعه آباء الكنيسة لكي يتفق مع الإيمان، فالمعنى اللفظي المباشر ليس بالضرورة يتوافق مع الإيمان.

[٨٤] أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٣٤.

ويستشهد بالقديس بولس في قوله: « **متى أدخل البكر إلى العالم يقول. ولتسجد له كل ملائكة الله**» (عب١:٦) مؤكداً على أن تعبير دخل إلى العالم؟ تعني أنه منفصل عن العالم، ليس من جهة المكان بقدر ما هو من جهة الطبيعة : «إنه يختلف عن سكان العالم في الطبيعة، ولكن دخل إلى العالم بأن صار إنسانًا، وبذلك صار جزءًا من العالم بالتجسد. ورغم أنه هو الابن الوحيد من جهة ألوهيته، إلاَّ أنه لكونه صار أخًا لنا، فقد أصبح له اسم « البكر»، ولكي يصير هو الباكورة لتبنِّي البشرية، فإنه يمكنه أن يجعلنا أيضًا أبناء الله»[٨٥].

يوضح أيضاً القديس كيرلس على أنه هناك فرق بين أن نتحدث عن الكلمة تدبيرياً (إيكونومياً) أي بعد التجسد في علاقته الخلاصية مع البشر وبين أن نتحدث عن الكلمة (ثيولوجياً) أي قبل التجسد في علاقته مع الآب والروح القدس، إذ يقول: «لذلك لاحظوا، أنه يُدعى البكر من جهة التدبير[٨٦]، لأنه من جهة ألوهيته هو الابن الوحيد. وأيضًا فإنه الابن الوحيد من جهة كونه كلمة الآب الذي ليس له إخوة بالطبيعة ولا يوجد أي كائن مشترك معه. لأن ابن الله المساوي للآب، هو واحد ووحيد، ولكنه يصير بكرًا بتنازله إلى مستوى المخلوقات».

كذلك يذكر لنا ق.كيرلس أحد المباديء الأساسية في التفسير بأنه حينما يتحدث الكتاب عن الكلمة في علاقته بالآب والروح القدس لا يذكر أي سبب أو علة لكن حين يتحدث عن الكلمة تدبيرياً أي في علاقته الخلاصية مع البشر يذكر السبب، إذ يقول: « لذلك

---

٨٥ أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٣٤-٣٥.

٨٦ اصطلاح ''التدبير'' يستعمله القديس كيرلس وكل الآباء ليعبِّروا عن خطة الله وقصده لتتميم خلاص الإنسان عن طريق مجيء ابن الله في الجسد واتحاده بطبيعتنا وتتميمه الفداء بالموت والقيامة.

حينما يُدعى الابن الوحيد، فإنه يُدعى هكذا دون أن يكون هناك سبب آخر لكونه الابن الوحيد إذ هو الإله الوحيد الجنس الذي في حضن الآب (يو ١:١٨) ولكن حينما تدعوه الكتب الإلهية « بالبكر» فإنها تضيف حالاً علَّة السبب الذي من أجله حمل هذا اللقب فتقول الكتب «البكر بين إخوة كثيرين» (رو٨:٢٩)، وأيضًا «البكر من الأموات» (كو ١:١٨)، ففي المرَّة الأولى دُعي «بكرًا بين إخوة كثيرين» بسبب أنه صار مثلنا في كل شيء ما عدا الخطية، وفي المرة الثانية دُعي «البكر من الأموات» لأنه هو الأول الذي أقام جسده إلى حالة عدم الفساد». ثم يستمر في الحديث، قائلاً: «وأيضًا هو كان دائمًا منذ الأزل الابن الوحيد بالطبيعة، لكونه الوحيد المولود من الآب، إله من إله، وحيد من وحيد، إله أشرق من إله، نور من نور، ولكنه هو «البكر» لأجلنا نحن حتى عندما يُدعى بكرًا للمخلوقات فإن كل مَنْ يشابهه يخلص بواسطته».

يشرح أيضاً بطريقة واضحة مفهوم كلمة «بكر» قائلاً : «الابن هو علَّة أولئك الذين نالوا لقب الأبناء، لأنهم بواسطته قد حصلوا على هذه التسمية، لذلك وهو علَّة وجود الأبناء الذين أتوا بعده فإنه يُدعى البكر بحق، لا لأنه هو أولهم، بل لكونه العلَّة الأولى لحصولهم على لقب التبنِّي»[٨٧] ويؤكد على التمييز الواضح بين الابن والمخلوقات، إذ يقول: «وكما أن الآب يُدعى الأول لأنه يقول: « **أنا الأول وأنا بعد هذه الأشياء**» (إش٤١:٤)، وهو بالتأكيد لا يريدنا أن نعتبره أنه مشابه في الطبيعة لأولئك الذين يأتون بعده، هكذا أيضًا فرغم أن الابن يُدعى بكر الخليقة، أو البكر قبل كل خليقة، فهذا ليس معناه

٨٧ أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٣٥.

أنه واحد من الأشياء المخلوقة، بل كما أن الآب قال «أنا الأول» لكي يُوضح أنه أصل كل الأشياء، فبنفس المعنى يُدعى الابن أيضًا بكر الخليقة «**فإن كل الأشياء خُلقت به**» (يو ١: ٣). فكخالق وصانع للعالم، هو بداية كل الأشياء المخلوقة وأصلها»[٨٨].

(لو ٢: ٧) «وَأَضْجَعَتْهُ فِي الْمِذْوَدِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَوْضِعٌ فِي الْمَنْزِلِ».

يفسر القديس كيرلس رمزياً وروحياً هذه الآية، إذ يعتبر أن الإنسان قد تدنَّى إلى مستوى الحيوانات جراء السقوط، لذلك فإنه وُضع المسيح الطفل مثل علف في المزود، لكي يعطينا إمكانية أن نخلع حياتنا الحيوانية، ونرتفع إلى درجة العقل والبصيرة التي تليق بطبيعة الإنسان، وذلك باقترابنا من المزود، أي «مائدته الخاصة»، أي الخبز الذي من السماء الذي هو جسد الحياة[٨٩].

---

[٨٨] أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٣٦.

[٨٩] أنظر تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٧م، ص٣٦.

٤ـ عظة (٢)

على ميلاد مخلصنا بالجسد[٩٠]

لو (٢: ٨ ــ ١٨) « وَكَانَ فِي تِلْكَ الْكُورَةِ رُعَاةٌ مُتَبَدِّينَ يَحْرُسُونَ حراسَات اللَّيْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِمْ، وَإِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ، فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا. فَقَالَ لَهُمُ الْمَلاَكُ: لاَ تَخَافُوا! فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. وَهذِهِ لَكُمُ الْعَلاَمَةُ: تَجِدُونَ طِفْلاً مُقَمَّطًا مُضْجَعًا فِي مِذْوَدٍ. وَظَهَرَ بَغْتَةً مَعَ الْمَلاَكِ جُمْهُورٌ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِيِّ مُسَبِّحِينَ اللهَ وَقَائِلِينَ: الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ. وَلَمَّا مَضَتْ عَنْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ الرجال الرُّعَاةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لِنَذْهَبِ الآنَ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَنَنْظُرْ هذَا الأَمْرَ الْوَاقِعَ الَّذِي أَعْلَمَنَا بِهِ الرَّبُّ. فَجَاءُوا مُسْرِعِينَ، وَوَجَدُوا مَرْيَمَ وَيُوسُفَ وَالطِّفْلَ مُضْجَعًا فِي الْمِذْوَدِ. فَلَمَّا رَأَوْهُ أَخْبَرُوا بِالْكَلاَمِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ عَنْ هذَا الصَّبِيِّ. وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوا تَعَجَّبُوا مِمَّا قِيلَ لَهُمْ مِنَ الرُّعَاةِ».

يستخدم القديس كيرلس العهد القديم ويفسره **خريستولوجياً** ويستشهد بما هو مكتوب في سفر المزامير، إذ يقول: [«هلم نسبح الرب. ونرنم لله مخلصنا» (مز ٩٥: ١) لأنه هو رأس عيدنا، ولذلك فلنخبر بأعماله العظيمة، ونروي طريقة ذلك التدبير الذي خطَّطه تخطيطًا جميلاً، والذي بواسطته خلص العالم، ووضع نير ملكوته على كل واحد منا. هذا التدبير يستحق أن يكون موضوع إعجابنا.

٩٠ أنظر القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٣٧-٤١

«يا جميع الأمم صفقوا بأيديكم»، ويضيف أيضًا: «رتلوا بفهم لأن الله ملك على جميع الأمم» (٤٧: ١، ٧) لأن هذا السر المقدس قد تم بحكمة فائقة جدًّا بالمسيح، إن كان حقًّا، وحق هو بالتأكيد، أن الرب رغم أنه هو الله، ظهر لنا. ورغم أنه في صورة الآب وهو ذو تفوُّق فائق وشامل، فقد أخذ شكل عبد. ولكن رغم هذا فإنه هو إله ورب. فإنه لم يزل كما كان (قبل أن يتجسد)][٩١].

معادلة الوعد - التحقيق

يقول القديس كيرلس :[إن جماعة الأنبياء القديسين قد سبقوا فأخبروا بميلاده بالجسد، وباتخاذه شكلنا في الوقت المعيَّن، الآن قد تحقق هذا الرجاء، فإن قوات السماء تأتي بالأخبار المفرحة عن ظهوره في هذا العالم للرعاة قبل الجميع في بيت لحم، وبذلك كانوا أول من حصل على معرفة السر. والرمز هنا يشير إلى الحقيقة، لأن المسيح يعلن نفسه للرعاة الروحيين لكي يبشِّروا به الآخرين، كما حدث من الرعاة أيضًا عندما تعلَّموا سره من الملائكة القديسين، وأسرعوا ليحملوا الأخبار المفرحة للآخرين، لذلك فالملائكة هم أول من بشَّر به وأعلنوا مجده كإله مولود في الجسد من امرأة بطريقة عجيبة][٩٢].

ويرد القديس كيرلس على تساؤل المعترضين : «إن الذي وُلد الآن كان طفلاً وكان ملفوفًا بالأقماط ومضجعًا في مذود، فكيف نقول إنَّه تُسبِّحه القوَّات العلوية كإله؟ حيث يقول:[أيها الإنسان عمِّق السر فإن الله صار في شكل منظور مثل شكلنا. رب الكل في شكل عبد، ومع ذلك

٩١ أنظر القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٣٧

٩٢ أنظر القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٣٨

فإن مجد الربوبية غير منفصل عنه. افهم أن الابن الوحيد صار جسدًا، وأنه احتمل أن يولد من امرأة من أجلنا، لكي يُبطل اللعنة التي حُكم بها على المرأة الأولى، فقد قيل لها، « **بالوجع تلدين أولادًا**» (تك٣:١٦) فإنها كأنها تلد للموت. ولذلك ذاقوا أي أولاد المرأة لدغة الموت. ولكن لأن امرأة قد وَلَدَت في الجسد، عمانوئيل، الذي هو الحياة فإن قوة اللعنة قد أُبطلت. ومع إبطال الموت أُبطلت أيضًا الأوجاع[٩٣]التي تحتملها الأمهات الأرضيات في الولادة][٩٤]. ثم يستمر مستشهداً ببولس الرسول حيث يقول: [أتريد أن تتعلَّم سببًا آخر لهذا الأمر؟ تذكَّر ما كتبه بولس الحكيم جدًّا عنه: « **لأنه ما كان الناموس عاجزًا عنه، لأنه كان ضعيفًا بالجسد. فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية. ولأجل الخطية دان الخطية في جسده. لكي يَتم حُكم الناموس فينا نحن السالكين ليس حسب الجسد. بل حسب الروح**» (رو٨: ٣،٤). فما معنى قوله إن الابن أُرسل في شبه جسد الخطية؟ هذا هو المعنى: أن ناموس الخطية يكمن مختفيًا في أعضائنا الجسدية مصاحباً تحرك الشهوات الطبيعية المخجلة، ولكن حينما صار كلمة الله جسدًا، أي إنسانًا، واتَّخذ شكلنا، فإنَّ جسده كان مقدسًا ونقيًّا نقاوة كاملة، وهكذا كان حقًّا في شبه جسدنا، ولكن ليس بنفس مستواه. لأنه كان حرًّا من ذلك الميل الذي يقودنا إلى ما هو ضد الناموس][٩٥].

الأمر الهام بحسب القديس كيرلس هو أنه عندما ننظر إلى الطفل يسوع يجب أن لا نركز على الأقمطة وميلاده الجسدي بل على بالحري عل مجده

٩٣ ربما يقصد القديس كيرلس أن العذراء القديسة في ولادتها للمسيح ولدت بدون وجع.

٩٤ أنظر القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٣٨

٩٥ أنظر القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٣٩

الإلهي، إذ يقول : [لذلك فحينما ترى الطفل ملفوفًا بالأقماط لا تُركز فكرك على ميلاده في الجسد فقط، بل ارتفع إلى تأمل مجده الإلهي، ارفع عقلك عاليًا، اِصعد إلى السماء، وهكذا سوف تنظره في أعلى تمجيد، وهو صاحب المجد الفائق، سوف تراه: «**جالسًا على عرش عالٍ ومرتفع**» (إش٦: ١)، سوف تسمع السيرافيم يمجدونه بتسابيح، ويقولون إن السماء والأرض مملوءتان من مجده، نعم بل حتى على الأرض قد حدث هذا، لأن مجد الله أضاء على الرعاة. وكان هناك جمهور من الجنود السماويين يخبرون بمجد المسيح][96].

يوجد إختلاف شاسع بيننا وبين الابن. وهذا ما يؤكد عليه القديس كيرلس، قائلاً: [لقب البنوة قد مُنح لنا كنعمة حتى علينا نحن الذين تحت النير، ونحن بطبيعتنا عبيد، أما المسيح فهو الابن الحقيقي، أي أنه ابن الله الآب بالطبيعة، حتى حينما صار جسدًا: لأنه استمر على ما كان عليه منذ الأزل، رغم أنه اتخذ ما لم يكن له[97]][98].

شاهد كتابي يبين الفرق الشاسع بين الابن والبشر

يقول القديس كيرلس : [والنبي أيضًا يؤكد لنا أن ما أقوله صحيح، بقوله: « **ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمانوئيل. زبدًا وعسلاً يأكل قبل أن يعرف أن يختار الشر. هو يُفضِّل الخير: لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يعرف الخير والشر فهو لا يطيع الشر بل يختار الخير**» (إش٧: ١٤-١٦ سبعينية) أليس واضحًا للجميع أن

---

[96] أنظر القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٣٩

[97] واضح أن القديس كيرلس يقصد أن المسيح استمر إلهًا كما كان منذ الأزل رغم أنَّه أخذ الجسد الذى لم يكن له أصلاً بل أخذه من العذراء مريم.

[98] أنظر القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٣٩

الطفل حديث الولادة لا يستطيع بسبب صغره وضعفه، أن يفهم أي شيء، وهو غير كفء بعد لمُهمَّة التمييز بين الخير والشر، لأنه لا يعرف شيئًا على الإطلاق. أما في حالة المسيح مخلصنا فقد أكل الزبد والعسل رغم أنه كان لا يزال طفلاً، ولأنه كان إلهًا وصار جسدًا بطريقة تفُوق الفهم فإنه عرف الخير فقط، وكان منزهًا عن الفساد الذى في البشر، وهذه أيضًا صفة للجوهر الفائق، لأن ما هو صالح بالطبيعة، هو خاص به بثبات وبغير تغيير، وهو خاص به وحده: «**ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله**» (لو١٨:١٩) وكما قال مخلِّصنا نفسه][٩٩].

إنه بالطبيعة إله

يقول القديس كيرلس: [أتريد أن تعرف فضيلة أخرى لهذا الطفل؟ أتريد أن ترى أنه بالطبيعة إله، ذاك الذى وُلد في الجسد من امرأة؟ انظر ما يقوله إشعياء النبي عنه: "**فاقتربتُ إلى النبية. فحبلت وولدت ابنًا. فقال لي الرب ادع اسمه:«أسرع وأسرِ وأتلَف بسرعة»**» (إش٨: ٣،٤). لأنه في نفس توقيت ميلاد المسيح أُتلِفَت قوة الشيطان، لأنه في دمشق كان الشيطان هو موضوع الخدمة الدينية، وكان له هناك عابدون، ولكن حينما وَلدت العذراء القديسة انكسرت قوة الطغيان، إذ أن الوثنيين انجذبوا إلى معرفة الحق وكان باكورتهم وقادتهم المجوس الذين جاءوا من المشرق إلى أورشليم، الذين كان معلِّمتهم هي السماء وأستاذهم هو النجم][١٠٠].

---

٩٩ أنظر القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٤٠

١٠٠ أنظر القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٤٠

لا تنظر إلى المُضطجِع في المذود على أنه مجرد طفل

يقول القديس كيرلس: [لذلك لا تنظر إلى المُضطجِع في المذود على أنه مجرد طفل، بل في فقرنا انظر ذاك الذي هو غني كإله. وفي مستوى بَشَريتنا انظر ذاك الذي يفوق سكان السماء، ولذلك فإنه يمجَّد من الملائكة القديسين. وما أرفع تلك التسبحة: « **المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة!**» لأن الملائكة ورؤساء الملائكة والعروش والسيادات، وأعلى منهم السيرافيم، هم يحفظون رتبهم المعيَّنة، وهم في سلام مع الله. لأنهم لا يعتزلون إرادته الصالحة أبدًا بأي طريقة. بل هم ثابتون وراسخون في [illegible] والقداسة. أما نحن المخلوقات البشرية، فقد وضعنا أنفسنا في موضع الأعداء بالنسبة للرب، لأننا وضعنا شهواتنا الخاصة ضد مشيئته. ولكن المسيح قد أبطل كل هذا! « لأنه هو سلامنا» (أف ٢: ١٤) لأنه قد وحَّدنا مع الله الآب بواسطة نفسه إذ قد رفع سبب العداوة من الوسط وأعني به الخطية، وهكذا هو يبرِّرنا بالإيمان، ويجعلنا قديسين وبلا لوم، والذين كانوا بعيدين يدعوهم قريبين إليه. وإلى جانب ذلك، فقد خلق الشعبين في إنسان واحد جديد، صانعًا سلامًا ومصالحًا الاثنين في جسد واحد مع الآب. لأنه قد سر الله الآب أن يجمع فيه كل الأشياء (أف١: ١٠) في واحد جديد متكامل، وأن يربط الأشياء السفلى مع الأشياء التي فوق، ويجعل الذين في السماء والذين على الأرض رعية واحدة. لذلك فالمسيح قد صار لنا سلامًا ومسرَّة][١٠١].

إذن علينا أن لا نرى طفل المذود على أنه طفل عادي بل على أنه الإله الغني، وأنه هو سلامنا حيث وحَّدنا مع الله الآب بواسطة

---

١٠١ أنظر القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٤٠-٤١

ذاته. وكذلك هو يبررنا بالإيمان ويجعلنا قديسين، وأيضًا هو الذي تنجمع فيه كل الأشياء إذ جعل الأثنين واحدًا، السماء والأرض. هكذا تحققنا من خلال شرح القديس كيرلس لنصوص الكتاب أن التفسير الصحيح يتطلب إيمانًا معاشًا هو أساس هذا التفسير وكذلك على الشخص المفسر أن يكون عضوًا حيًا في جسد المسيح الذي هو الكنيسة يمارس صلواتها وأسرارها ونُسكها ومتمتعًا بُسكنى الروح القدس فيه.

أسئلة الفصل الرابع

١- كيف شرح القديس كيرلس قول الرب: «ما جئت لأنقض... بل لأكمل» (مت٥: ١٧-١٨)؟

٢- أشرح أهمية البُعد النسكي للتفسير؟

٣- ما هي منفعة الناموس الفعلية وأهميته؟

٤- أشرح التعليم عن الخلق والسقوط والخلاص عند القديس كيرلس؟

٥- ما هي الأمثلة الكتابية التي تشير رمزيًا إلى تدبير الخلاص؟ (قصة إبرآم وتغربه وتدبير الله)

٦- ما هي القراءة التفسيرية لقصة لوط عند القديس كيرلس؟

٧- ما هو التفسير الروحي لخروج بني إسرائيل عند القديس كيرلس؟

٨- كيف فسر القديس كيرلس ما جاء في إنجيل

(لوقا١: ٢): "الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ".

(لوقا١: ٥٢): "أَنْزَلَ الأَعِزَّاءَ عَنِ الْكَرَاسِيِّ وَرَفَعَ الْمُتَّضِعِينَ".

(لو١: ٥٣): "أَشْبَعَ الْجِيَاعَ خَيْرَاتٍ وَصَرَفَ الأَغْنِيَاءَ فَارِغِينَ".

(لو١: ٥٤): " عَضَدَ إِسْرَائِيلَ فَتَاهُ لِيَذْكُرَ رَحْمَةً".

(لو١: ٦٩): " وَأَقَامَ لَنَا قَرْنَ خَلاَصٍ فِي بَيْتِ دَاوُدَ فَتَاهُ".

(لو١: ٧٦): " وَأَنْتَ أَيُّهَا الصَّبِيُّ نَبِيَّ الْعَلِيِّ تُدْعَى، لأَنَّكَ تَتَقَدَّمُ أَمَامَ وَجْهِ الرَّبِّ لِتُعِدَّ طُرُقَهُ".

(لو١: ٧٩): " لِيُضِيءَ عَلَى الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ".

٩- أذكر البُعد التاريخي والعقيدي في تفسير القديس كيرلس للأصحاح

الثاني من إنجيل لوقا عن ولادة المسيح في بيت لحم؟

١٠- كيف شرح القديس كيرلس ولادة عمانوئيل المعجزية وربطها بأن مريم كانت مخطوبة؟

١١- ما هو مفهوم كلمة " بكر " ؟

١٢- ما هو التفسير الخريستولوجي للقديس كيرلس لنص (لو ٢:٨-١٨) مع شرح معادلة الوعد - التحقيق؟

١٣- إشرح الفرق الجوهري بين الإبن والبشر بحسب تعليم القديس كيرلس؟

إن مسألة فِهم الكتب المقدسة تتطلب سعياً جاداً في طلب المسيح المستتر في هذه الكتب، وهذا الأمر سبق أن أكد عليه القديس كيرلس الإسكندري في مقدمة المقالة الأولى من عمله المُسمى: جلافيرا، قائلاً: "قال المسيح لجموع اليهود "فتشوا الكتب" (يو ٥:٣٩)، مظهراً لهم بوضوح أن البعض لن يستطيعوا أن يأتوا إلى الحياة الأبدية، إن لم ينقبوا بعمق، كما في كنز، في الناموس، وإن لم يسعوا بجدية في طلب الجوهرة (اللؤلؤة) المخفية فيه، أي المسيح، "المزخر فيه كل كنوز الحكمة والعلم"، طبقا لما قاله بولس الطوباوي (كو ٢:٣)"

القديس كيرلس الإسكندري

جلافيرا على سفر التكوين

المقالة الأولى

يُطلب هذا الكتاب من :

- جذور للتوزيع تليفون: ٨١٣٧ ٢٦٣٣
- georgeibrahim2257@yahoo.com

سعر النسخة

٣٠,٠٠ جنيه